محمد صالح رجب

المرشد

رواية

إهداء

إلى المقهورين الذين لم يلتفت إليهم أحد.

محمد صالح رجب

أنا أشير إلى القمر والأحمق ينظر إلى أصبعي..

(مثل صيني)

إنهم يعتقدون أن تربية الصغار ليست فقط أقل كلفة من تجنيدهم كبارا، وإنما هم أيضا أكثر إيمانا بالفكرة وأكثر استعدادا للبذل والتضحية..

(١)

الثلاثاء ١ يوليو ٢٠١٤

وزارة الداخلية – القاهرة..

توقفت الحركة والأحاديث الجانبية ووقف السادة الضباط حين دخل اللواء محمد الفنجري مساعد وزير الداخلية للإعلام والعلاقات، استقر خلف مكتب فخم في تلك القاعة الفخمة بابتسامته العريضة المميزة، أشار إليهم بكلتا يديه أن تفضلوا، استريحوا.عَدل الميكروفون كعادته قبيل أي حديث، ثم حياهم.. حضرات السادة الضباط..صباح الخير عليكم جميعا..

تلقى تحيتهم مجتمعة، ثم نظر إلى الوجوه المشرئبة المترقبة التي دعيت إلى هذا الاجتماع والذي لا يعرفون عنه سوى الزمان والمكان، ستة عشر قيادة أمنية تُبِّب مختلفة من مختلف المحافظاتدُعيت لاجتماعٍ في مبنى وزارة الداخلية في التاسعة من صباح اليوم الثلاثاء الأول من يوليو لعام ٢٠١٤ دون أن يعرف أي منهم سَببَ الاجتماع..

نظر اللواء محمد إلى الوجوه المترقبة، انتظر قليلا ربما لِشد انتباههم قبل أن يتحدث قائلا:

في البداية انقل لكم تحيات السيد الوزير وتمنياته الطيبة لكم، ثم واصل:

– أكيد بتسألوا عن سبب الاجتماع.. بعضكم مؤكد ربط بين حضوري وطبيعة الاجتماع، والحقيقة قبل أن أتحدث إليكم عن سبب الاجتماع أود أن أتحدث في نقطة معينة ستكون مدخلا لموضوع الاجتماع..

النهاردة مفيش أوامر، مفيش رتب، فقط، فيحياة مدنية، لمدةِ أربع ساعات تقريبا، بمعنى أننا سنرفع التكليف بنا وبين بعض في هذه الساعات الأربع، كان ممكن نعقد الاجتماع ده في مكان آخر، لكن وجدنا من الأفضل أن يكون هنا، في وزارة الداخلية نفسها، أتعرفون لماذا؟

لم يجب احد..فهم لا يعرفون، كما أنهم لم يعتادوا الرد على قياداتهم العليا،فقط يتلقون الأوامر وينفذون..

أجاب على نفسه قائلا:

لأننا محتاجين فكر جديد في وزارة الداخلية، والفكر ده يجب أن يبدأ من هنا، من قمة الهرم، عشان كده جمعنا نخبة مهمة من القيادات الأمنية الكبرى وجعلنا الاجتماع هنا، في وزارة الداخلية.

ورغم أن الكلام لم يحملَ بُعْدُ خبرا، وبالتالي لا معنى له حتى الآن، إلا انه شَدَّ الجميع، فثمة ما هو جديد، لكن ما هو؟ لا أحد يدري..

واصل اللواء "الفنجري"حديثة ممتدحا الحضور باعتبارهم أول دفعة لهذا الفكر وتمنى أن تكون التجربة مفيدة ولها أثر طيب في سلوك الداخلية الذي اشتكى منه القاصي والداني وجعلها في مرمى غضب المواطن..

ولأن البعض لازال متشنجا، راح يكرر عليهم: خذوا راحتكم " ريلاكس" نحن هنا للترفيه والاستمتاع..

ذهل السادة الضباط عندما سمعوا هذا الكلام، فكرر، نعم، نحن هنا للاستمتاع بوقتنا، نحن هنا لقراءة إحدى الروايات الجديدة..

التفت الحضور بعضهم إلى بعض في دهشة، فعاجلهم:

– لا تتعجبوا، أنا قلت لكم اليوم مختلف وبداية مختلفة لفكر مختلف نريده لوزارة الداخلية، واصل حديثه:

تعلمون أن سمعتنا في الحضيض رغم ما نقدمه من تضحيات، حتى عندما قامت ثورة يناير قيل أنها قامت ضدنا واختاروا يوم ٢٥ يناير والذي هو عيد للشرطة يوما للثورة، والحقيقة أن تجاوزات البعض منا أثرت سلبا على صورتنا في المجتمع، ورغم أن جهودا كبيرة بذلت لتغيير تلك الصورة السلبية في أذهان قطاع كبير من المواطنين لاسيما من فئة الشباب، إلا أن نتائجها كانت محدودة للغاية، والسبب أنها كانت نمطية، تقليدية، في هذا العصر ومع قفزات العلم وأجيال الكمبيوتر وشباب" السوشيال ميديا" يصعب أن نتعامل معهم بأفكار تقليدية تخطاها الزمن، لذا كان علينا بأفكار جديدة إن أردنا النجاح، أفكار خارج الصندوق، أفكار غير نمطية، واجتماعنا اليوم يدخل في هذا الإطار، مطلوب من رجل الآمن أن يقرأ، يقرأ في كل شئ حتى في الأدب، مطلوب منا أن نضيق المسافة بيننا وبين الناس وبالذات الشباب، مطلوب منا أن نقترب من فكرهم ومش هيجي ده إلا بالقراءة والإنصات إليهم.. لا ندري إنا كنا سننجح أم لا، لكن المؤكد أننا لن نخسر، والمؤكد أيضا أن الفكرة تستحق أن تنال فرصة، والهدف يستحق أن نجرب له ونبذل جهودا غير عادية من أجله.. فهل انتم مستعدون؟

– حسنا..قالها حين تلقى إشارات الموافقة، وواصل:

أعلم أن البدايات دائما صعبة، وكبداية، وتيسيرا عليكم هذه المرة قمنا بتسجيل الرواية، سيقرؤها عليكم مجند بصوت رائع، وسنوزع عليكم نسخا منها، لن نسألكم عن ملحوظاتكم، فقط نريدكم أن تستمتعوا بقراءة الرواية، وتستوعبوا ما فيها، تستطيعون الانصراف فورا عقب الانتهاء من قراءة الرواية، الرواية نقرأها كما هي دون إضافات أو حذف أو تعليق فقط سنوزع عليكم ورقاً وأقلاماً لمن أراد أن يكتب لنفسه ملحوظة ..

(٢)

وآخرة العذاب دا أيه يا ربي؟

قالها همسا بعد طول انتظار وهو يجلس منهك القوى على مقعد خشبي مكبل اليدين معصوب العينين، ألم الانتظار فاق الألم الجسدي الذي طال كل شئ في جسده، صمت قبور يغلف المكان، تجرحه من آن لآخر أنفاس بشرية تدعم ظنونه بوجد من يراقبه.. كان يعلم جيدا أن الأمر لم ينته بعد، وأن ليله ما زال طويلا.. تناهى إلى مسامعه صوت خطوات ثقيلة تمشي بثبات، تقترب شيئا فشيئا، ويد ثقيلة تمسك بتلابيب قميصه وتسحبه من أعلى كتفه. كان لينا مرنا مع صاحبها، يستجيب حيث يوجهه. دفعه بعنف عبر بوابه استشف متانتها من اصطكاك الأقفال والجنزير بدرفتيها. تسلمه شخصان، وهبطا به درجات عدة. حرارة المكان وضيق النفس أشعراه أنه كما لو كان تحت الأرض.. قطعوا أمتارا قليلة قبل أن تطرق أذنيه آهات طويلة تزداد نبرتُها كلما واصلوا السير. لا إراديا تباطأت خطواته، ولم يعد طيعا كما كان، بدا كمن يساق إلى المشنقة، تتدلى ساقاه وهما يجرانه من عضديه. يسحبانه ويعلقا يديه مفرودتين إلى لوح أفقي وساقاه متباعدتان ومثبتتان. هم لا ريب يصلبانه، لقد رأى هذا المشهد مرارا، لكنه لم يتوقع يوما أن يكون أحد أبطاله. ضربات قلبه تتسارع، يعود قليلا بالذاكرة إلى الوراء، إلى أيام مضت لم يعد يعلم عددها، ويتذكر أنواع العذابات التي شهدها منذ جِيء به إلى هذا المكان.. عندما نزل من السيارة ركل بالأقدام من نفر غير قليل، كل يسلمه للآخر بقدمه أو بعصا غليظة كان ممسكا بها، يحاول أن يهرب من أحدهم فيصطدم بالآخر. كانوا متراصين على جاني الطريق بشكل منتظم، وعلى مسافات متقاربة، بدوا وكأنهم مدربون على هذا الأمر أو اكتسبوا خبرة في ذلك. ثم صُفِع على قفاه لأول مرة في حياته، لم يفعلها أبوه، ولم يسمح لأحد قط أن يضربه على قفاه. كان كالصعايدة في هذا الأمر، يعتقد أن الضرب على القفا منتهى الإهانة، وقد أهين كثيرا، لكن يبدو أن نظرته كانت ضيقة، فالضرب على القفا لم يكن منتهى الإهانة كما كان يعتقد، بل لم يكن إهانة من أصله بجانب أشياء أخرى يحتفظ بها لذاته ويخجل أن يعرف بها أحد غيره، كان يبكي طويلا كلما تذكرها.. لم يكن هذا فحسب، بل أوثقوا يديه وقدميه في عصا مسندوة إلى كرسيي خيزران يتدلى كما الخروف فوق النار في حفل شواءٍ ثم ينهالوا عليه ضربا.. أصناف شتى من العذاب عرفها منذ قدم إلى هذا المكان، لكنه لم يتعرض للصلب من قبل. يبدو أنه كتب عليه أن يتذوق كل أصناف العذاب. خجل من نفسه حين باغتته رغبة ملحة في الضحك،سرعان ما أجهضها في مهدها، لكنه مع ذلك راح يتهكم على نفسه في داخله، لم يكن في حاجة هذه المرة لمن يسخر منه، بل هو ذاته راح يسخر من نفسه، يسخر من عبطه وسذاجته.. عاد إلى نفسه سريعا مع أول سوط وقع على ظهره، صار يزعق هو الآخر ويشارك الآخرين الألم. رجلان يتبادلان الضرب على ظهره بتناغم شديد، هذا يهوي بسوطه في

الوقت الذي يرفع الآخر سوطه. الألم مستمر والآهات تنطلق من الأعماق. قاوم كثيرا شدة الألم حتى وصل إلى مرحلة اللاشعور. من فرط الألم لم يعد يشعر به، ويبدو أن هذا الإحساس قد تسرب إليهم فتوقفوا عن الضرب، حملاه كالذبيحة والقوا به في غرفة ضيقة، أزالا العصابة من فوق عينيه ثم أغلقا عليه الباب الحديدي. كان يكابد الانهيار، يشعر بثقل جسده ورأسه، كل شئ مشوش أمامه، حتى الذاكرة.. وحدها صورة زوجته وطفله كانت آخر ما سجلته ذاكرته قبل أن يغيب عن الوعي..

(٣)

يا لرتابتك.. قالتها لائمة.. كل شئ يجب أن يكون مرتبا.. منطقيا، ألم تشعري يوما بحاجة إلى شئ من الجنون؟ الم تودي أن تصرخي بأعلى صوتك، أن تضحكي بعنف، أن تحبي، أن تكرهي؟ لم تخجلين أن يرى الناس ضحكتك العالية، ودموع عينيك الغزيرة، ويسمعوا نبضات قلبك الحائرة؟ لماذا كل شئ في حياتك يجب أن يكون منطقيا؟ ألم تملي هذه الحياة، ألم تفكري يوما أن تتحرري من هذا السياج الذي صنعته لنفسك؟.. صمتت أميرة بعد أن شعرت أنها أثقلت. أنصتا سويا إلى أم كلثوم، كانت تشدوا "طول عمري بخاف م الحب وظلم الحب لكل اصحابه.. وأعرف حكايات مليانه آهات ودموع وأنين، والعاشقين دابو ما تابوا..". يومها حدثتها أميرة عن عشقها لتناول كوب الشاي سكر زيادة مع اللب المالح، لم تجد سعاد رابطا ولا مناسبة لهذا الكلام سوى كوب الشاي سكر زيادة الذي بيد أميرة، والذي اعتادت أن تطلبه كلما زارتها.. حين لمحت الدهشة في عينيها فسرت لها: اجتماع الملح مع السكر يمنح لذة متفردة، كالحب تماما، يمنح ألمه لذة متفردة. الم تسمعي " العاشقين دابوا ما تابوا"، رغم جراح الحب نبحث عنه بأيدينا، وكأننا نبحث عما يؤلمنا. لكن لولا عذابه ما عرفنا لذته، هكذا الحب وهكذا الحياة.. لولا الألم ما عرفنا طعم السعادة.

لكن أين نجد الحب؟ بل وكيف نبحث عنه وهو غير قابل للبحث؟ إنه يقتحم القلوب دون إذن منا. هل رأيت إعصارا أو طوفانا يستأذن؟! هكذا الحب لا يطرق بابا، إنما يندفع ويطيح بكل الحواجز ليستوطن القلوب، فيحدث ألمه تلك اللذة المتفردة..

هي الأخرى كانت تنتظر هذا الطوفان، كانت تنصت إلى زميلات العمل، وتضع تفسيرات لتلك التنهيدات واحمرار الخدود كلما تكلمن عن الحب.. تتخيل نفسها وقد غمرها الطوفان مثلهن، لتسبح معه منتشية بعذاباته، تطلق الآهات، تجلس شاردة لساعات، تسبح في بحر عينيه، تنتظر أن يكون صوته أول من تسمع فترى الوجود جميلا، وآخر من تسمع فتعيش معه الحلم..

لكن.. هل رأيت صحراء جرداء يقربها طوفان؟!، لقد أصبحت كالصحراء الجرداء، بعد أن جرى بها قطار العمر.. رحل أبوها وترك وراءه صبيا في الثانية عشر من عمره، و زوجة تصارع المرض من فوق ماكينة خياطة. لم تكن " سعاد مرسي أحمد" على قدر كاف من الجمال، لكنها كانت تمتلك قلبا هو الجمال ذاته، بشرتها خمرية، ووجهها مستدير، شعرها الأسود الطويل تغطيه بإيشارب وردي وتتدلى بعض خصلاته على جبهتها العريضة لتقترب من عينيها

الواسعتين، قصر قامتها يعطيها وزنا أكبر من وزنها. عندما مات أبوها كانت في السنة النهائية من دبلوم التجارة، ومنذ ذلك الحين نسيت سعاد أنها أنثى..

(٤)

مساكين، يأكلون ويشربون، و يتغوطون وأيضا يمارسون الجنس ويتكاثرون، هم عينة من البشر، منغلقون، يمارسون ذات الطقوس، تجمعهم قواسم مشتركة، لا علاقة لهم بالجمال، هم لا يهتمون بأناقتهم، لا تلفت انتباههم الورود، لا تشدهم الموسيقى، لا يفكرون يوما بالنظر إلى القمر، أو التأمل في النجوم، وبالطبع، لا يمثل لهم الحب شيئا.

مسكين "سعيد "،هو الآخر منغلق على ذاته، مسارات حياته محددة، البيت، المسجد، وأرضه الصغيرة التي ورثها عن أبيه، تحالف معه الحظ يوما حين رست عليه القرعة، كان قد تبرع بمبلغ كبير لمعهد ابتدائي أزهري في قرية مجاورة حتى يتسنى له الدخول لاحقا في هذا السحب، لم يحاول أن ينتقل إلى معهد قريته الأزهري، لعلها طبيعته الانعزالية، نفر قليل هم كل شخصيات حياته، أمه الحاجة تفيده التي تخطت الخمسين والتي تشاركه الإقامة في بيته، أخواه الكبيران وقد استقلا بحياتهما، زملاء المعهد الأزهري الذي يعمل به كإداري.. كان على " سعيد" أن ينتظر كثيرا قبل أن يقدم على الزواج، إنه قانون القرية، الزواج أولا للأكبر سنا، تَطلَّب الأمر وقتا بعد وفاة والده، يوم تزوجا أخواه واستقلا بحياتهما كان عليه أن ينتظر أيضا، ثمة أقساط يجب أن يسددها لهما ليستحوذ على البيت، سمع وأطاع حين ارتأت أمه أنه قد آن الآوان لزواجه، هو لا يفعل شيئا دون الرجوع إلى أمه، جسدها الممتلئ يجعل حركتها بطيئة، تعتمد عليه في تأدية كثير من المهام، اعتاد صوتها العالي وهي تدعوه لفعل هذا أو ترك ذاك، ربما صعوبة الحركة بررت ذلك الصوت المرتفع الذي ورثه عنها.. في مساء عادي بعد عودته من صلاة العشاء دعته بصوتها العالي، فذهب ملبيا.. لم يفاجأ عندما حدثته من جديد في أمر زواجه وهي التي نصبت نفسها وكيلا عنه، تنقب وتفرز وتختار، غير أن المفاجأة التي ألجمت لسانه وجمدت حركته وجعلت عينيه تكاد تخرج من مآقيها، عندما رشحت له ناهد.. ناهد شابة يتحاكى أهل القرية بجمالها، خريجة دبلوم تجارة، تعمل في محل ملابس في مدينة المنصورة، ترتدي جيبه قصيرة تجسم خلفيتها ناهيك عن ساقيها العاريتين وشعرها الأسود المتدلي من خلف طاقية صغيرة تضعها فوق رأسها للزينة، لم تعتد القرية من بناتها على مثل هذا التحرر، شخصيتها القوية أطاحت بكل العادات والحواجز، ملَّ أهلها النصيحة كما ملوا نظرات الناس المستنكرة إلى أن استتب الأمر وأصبح مسلما به، وتقبله الجميع على هذا النحو، إلا أن أحدا من القرية لم يتقدم لخطبتها، فمن هو ذلك القروي الذي يقبل أن تكون زوجته بهذا التحرر، كل رجال القرية يتمنونها، يشتهون النظر إلى صدرها البض وخصرها النحيف وساقيها المرمريتين، إلا أن أحدهم على الأقل أمام الناس لا يرغب أن تكون زوجة له.

عندما أفاق سعيد من الصدمة وفكر قليلا في مفاتنها واستحضر صدرها المكتنز وعينيها العسليتين، بلع ريقه وتلعثم قليلا وهو يسأل:

– طب ازاي؟!

– يعني أيه ازاي يا وله؟

– واحدة زي دي هتقبل بيه ازاي وليه؟ ..

ضربت على صدرها ُ طْمئنِةَ: دي شغلتي بقى..سيب الموضوع ده علّي ، ومتنساش انها قريبتي..

ابتسم، وعاد وغاب بين مفاتنها..

(٥)

شاب ثلاثيني نحيل يسير بخطى سريعة، يسابق الزمن ويعبر برشاقة شارع بورسعيد المزدحم رغم أننا لازلنا في ساعات الصباح الأولى، سار بضع خطوات في سوق الخواجات ثم دلف يمينا إلى محل صغير تعلوه لافتة كتب عليها بخط ديواني عريض " الحاج إبراهيم البطران للملابس الجاهزة"، ورغم صغر المحل إلا أنه كان متخما بالبضاعة، أرفف عديدةتُصت عليها الملابس بشكل أنيق وفي مقدمة كل قسم بعض العينات التي وضعت بشكل لافت،ملحق بالمحل سندرة أو ملحق علوي صغير أشبه بمخزن وبه مكتب صغير للحاج إبراهيم يدير منه المحل ويطلع على ما يجري من خلال كاميرات المراقبة، حين دخل أحمد كانت رائحة البخور كالمعتاد تعبق المكان، أطلق صباحه المعتاد:

– صباح الخير يا سوسن..

وقبل أن ينتظر ردا، قال معاتبا:

بابنتي مش قلتلك ميت مرة خففي البخور ده شوية، هتخنوقينا..

استدارت سوسن التي كانت ترتب البضاعة على الأرفف، وقالت:

– صباح النور يا سيدي، هيه، نعم، اسطوانة كل يوم، شكلك مش هاتجيبها البر، مش هاتستريح إلا لما الحاج يبهدلني أو يطردني، ما انت عارف انه هو اللي عايز كده..

رفع يديه في وجهها قائلا:

– خلاص، خلاص، هو انا هاقدر عليك، ثم سأل:

هي ناهد لسه ماجتش؟

ردت باستهجان:

– انتَ ياللي قاعد في المنصورة جاي متأخر ، اش حال هي اللي بتسافر ..

رد مبررا:

– أنا كنت بره المنصورة امبارح في شغل وجيت متأخر والحاج على علم بتحركاتي.. لكن هي لو الحاج جه قبلها هيطين عيشتها..

كبتت سوسن بداخلها ضحكة ساخرة لم يظهر النقاب أثرها.. ثم قالت: أيوه..

وبوجه مأخوذ دخلت ناهد تتلصص،ترهف السمع، تشرأب عيناها باتجاه الدور العلوي، وبصوت خفيض قالت:

– صباح الخير.. الحاج جه؟

– لسه يااختي.. الحقي شوفي اللي وراك..

عندها انفرجت شفتاها وهرولت باتجاه عملها..

كان الحاج إبراهيم البطران شديدا مع عماله، منظما، دقيقا، كان يفضل دائما أن يكون عماله من الأرياف وإن سكنوا المدينة، ربما تعلق الأمر بأصوله القروية، كان يرى أن التعامل مع القرويين أسهل من التعامل مع أهل المدينة. القرويون قانعون في أغلبهم، يرتضون بأي شئ، لن يعترضوا على راتب أو على ساعات عمل أو حتى على شتيمة هنا أو هناك. وهي أشياء ربما لن يقبل بها كثير من أهل المدينة، على رأس عماله كان" أحمد" هذا الشاب الثلاثيني الذي حفظ طباع الحاج وأصبح محل ثقته و خصصه للمهام الصعبة من تحميل وتنزيل والسفر لإنهاء تعاقدات وإحضار البضاعة أو تسليمها وهو قروي سكن المدينة. و" سوسن " تلك الشابة البسيطة المنقبة، هي أيضا من قرية مجاورة. لم تكن سوسن على قدر كافٍ من الجمال ولا التعليم، لكن حاجتها إلى العمل جعلتها تتفانى فيه، تمسك بها الحاج ليس لتفانيها في العمل فحسب بل ولأنها منتقبة، الأمر الذي يضفي عليه مزيدا من الهيبة والصلاح حرص عليهما كثيرا بطلبه من الجميع أن ينادونه بالحاج، وقيامه بالعمرة مرات عديدة، والسبحة التي لا تفارق يده، والصدقات التي يخرجها كل صباح وفي المواسم، والأضاحي التي يوزع لحومها على فقراء قريته، والتي يقف بنفسه على ذبحها في بيت العائلة، ومبلغ ال٥٠ جنيها التي يوزعها والده نيابة عنه نهاية كل شهر على مجموعة من فقراء القرية.

لا غنى للحاج عن " أحمد " وَ "سوسن "، هما أساسيان في ملعبه، وحده المركز الثالث دائم التغيير، دائما ما تشغله أنثى جميله، تقضي شهورا قلت أو كثرت ثم تغادر. بنات خمس مررنا بهذا المركز قبل أن تشغله" ناهد". " ناهد " هي الأخرى كانت من قرية مجاورة للمنصورة، عملت لدى الحاج منذ أشهر قليلة، و منذ النظرة الأولى التي رمقها بها الحاج ولم تخطئ قراءتها حصلت على مكانة خاصة لديه. أوقات كثيرة كانت تصعد معه إلى الطابق

العلوي، كانت تساعد الحاج في الحسابات أو في ترتيب بعض الأعمال. كثيرا ما كان يطول بها المقام هناك. المرة الأولى التي صعدت فيها إلى الطابق العلوي كانت متخوفة بعض الشئ، فالرسالة التي قرأتها من نظراته الحيوانية تشي أن الأمر لن يسلم، لكن إلى أي مدى؟ كانت لا تعلم. هي تعي جيدا أنها لابد أن تدفع ثمنا ما لتكتسب ثقته. كانت مستعدة لهذا الثمن لكن في حدود. إنها تريد أن ترتدي الملابس الفخمة وتشتري العطور وتقب على وش الدنيا.. تريد أن تحيا كبنات البندر وكما ترى في المسلسلات والأفلام، إنها تكره رائحة الريف، تكره قيوده وعاداته، وتهيم عشقا في حياة المدينة، في المدينة لن تكون وحدها كاشفة الرأس عارية الساقين، لن يخصها أحد بالنظرات، فمثلها كثيرات، في المدينة ستحيا حرة، وهي تعشق الحرية، تعشق الحياة.. صعدت إلى الطابق العلوي، اقتربت من الحاج تسبقها رائحة أنوثتها. كانت تنتظر البداية لكنها لم تكن تعلم متى ولا أين ولا كيف. عندما طلب منها أن ترفع تلك الكرتونه إلى الأرفف كانت تشعر بحرارته، تشعر بعينيه تنهش مفاتنها، تسرب إليها إحساس أنها على شفا البداية. حملت الكرتون واتجهت صوب المكان المخصص، بينما راح هو يرقبها ويملي عينيه من مؤخرتها الرجراجة، يطالعها وهي تشد جسدها وتشب بقدميها، ليتأمل ساقيها العاريتين وجسدها الممشوق وهي ترفع يديها حاملة البضاعة، يمني نفسه لو يحتضنها من الخلف، يعتصر صدرها النافر بيديه ويضمها إلى صدره لتذوب بين يديه وتروي ظمأه للنساء. بالقطع هي ليست كالنساء اللاتي عرفهن، هي تضج بالأنوثة، تنفجر شبابا ورغبة، هو خبير بالنساء، يعرفهن جيدا، بل، وبمجرد النظر. هو يرى كل النساء جميلات حتى القبيحات منهن لها مذاقها الخاص، القبيحة تتغلب على شعورها بالنقص بجهد مضاعف تبذله لمنح الرجل لذة قد لا يشعر بها مع الجميلات. هو خبير . إذن . بالنساء، وخبرته تقول أن ناهد شابة من طراز خاص، جسدها فائر، نضج لتوه، ينتظر من يطعمه. كان يشعر برغبتها الجامحة في التحرر والانطلاق والانعتاق من قيود القرية، فسهل عليه الأمر. هي أيضا كانت قد اكتسبت شيئا من الخبرة في التعامل، وباتت منذ فترة تميز تلك النظرات الجائعة التي تلاحقها منذ بدأت تنضج وتشعر بفوران جسدها. تلاقت رغباتهما..حين اتجهت صوب الكرتون، كانت تشعر بسهام نظراته تخترق كامل ظهرها فتزيد من التواء جسدها أو انحناءاتها، فترتفع حرارته. حملت الكرتون ورفعتها، كادت تسقط فانتفض الحاج ومن خلفها امسك يديها والكرتون. تمحكت به وتمحك بها والتصق أكثر وضغط أكثر وتوقفا للحظات ينتشين لذة عابرة، ثم اقترب من أذنها، تلفحها أنفاسه اللاهثة:

– عنك انت يا ناهد.

فتتمنع بدلال:

– ميصحش يا حاج..

– هو ايه اللي ميصحش؟

– انك تشيل مكاني..

– بحسب..

تقصد ايه يا حاج؟

– لا.. ولا حاجة، احنا هنفضل شايلين الكرتونة كدا ولا ايه؟

التصق اكثر واكثر ودفعا الكرتون في مكانها وهبط بيديه إلى صدرها النافر وعبث ولثم خدها، عادت وتمنعت وهي تهمس:

– مش قلت لك ميصحش يا حاج..

ليجيبها وكل جزء في جسده مشدود:

– وأنا قلت لك هو ايه اللي ميصحش؟.. اللي ميصحش فعلا إني أقف ساكت قدام الجمال ده، طب أنا راضي ذمتك انت.. دا حتى يبقى عيب..

تغمغم بدلع:

– حاج.. أمال بقى؟

– يا روح الحاج، يا عيون الحاج.. تستدير وهو يلعق جيدها وشعرها الأسود الناعم، يتمسح بخدها ثم يهوي على فمها، تحاول أن تتمنع وتنسل من بين يديه قبل أن يتمكن من فمها و ويطبق عليه بقبلة طويلة يضع فيها كل خبراته، لتستسلم في خدر، تاركة يديه وفمه يعبثان بجسدها. ليقطع عليه الخلوة جرس الهاتف. يزمجر ساخطا تتطاير لعناته..كان قد حرم على أي من عماله الصعود للدور العلوي في وجوده ومن يريده عليه الاتصال أولا.. أخرجه الهاتف من تركيزه وخفض من حرارته. عدلت هندامها سريعا بينما راح هو يلعن الهاتف واللي جابوا الهاتف ويقول في غضب " هو دا وقته ". ضحكت بدلع وهمت بالنزول، استوقفها، خاطبها برغبته في رؤيتها خارج المحل، فسكتت وهرولت نزولا وهي تعدل من ملابسها خشية أن تترك أثرا، نزلت ترقبها من تحت لتحت عيون سوسن التي

تَشَاغلت بعرض البضاعة على زبونة تقف أمامها، ولم يلتفت إليها أحمد فقد كان مشغولا بالحديث إلى الحاج عبر الهاتف..

(٦)

شئ من الرهبة أصاب حسين حين طالعت عيناه لوحة صفراء كتب عليها باللون الأسود" المدير العام"، قرع شعبان الباب، واطمأن حسين على مظهره، كان يجلس خلف مكتب فخيم حين دخلا عليه، خص شعبان بترحاب كبير، سأله عن أحوال الأهل قبل أن يمازحه قائلا:

– ما شاء الله، صايرلك ١٥ سنة هنا ولسه بعدك شباب..

ابتسم شعبان وهو يحاول أن يجاريه في الرد، ثم قدمه إليه: مهندس حسين.. مهندسكم الجديد.. انهال عليه هو الآخر بالترحاب.

جلس شعبان برهة، ثم ما لبث أن استأذن بعد أن سلم الأمانة كما قال..

لم يع حسين كلامات كثيرة من عبارات الترحاب التي غمره بها المدير العام، وحده مدير المشاريع الذي حضر لتوه أنقذه من هذا الحرج الذي تملكه. بعد تعارف قصير اصطحبه عادل في رحلة بين مكاتب المؤسسة قبل أن يستقر في مكتبه.. قدم نفسه إليه.. "عادل محمود" مهندس مدني، من القاهرة، بقالي عشرين سنة في السعودية، تنقلت في أماكن كثير حتى استقريت في المكان ده وبقيت كما ترى، مديرا للمشاريع في مؤسسة " البناء الحديث للمقاولات العامة..

لم يطلب من حسين أن يقدم نفسه وكأنه يعرف عنه كل شئ، غير أنه سأله مباشرة عن أحوال مصر. الغريب أنها كانت تقريبا ذات الأسئلة التي سألها شعبان من قبل، كان يشعر أنه كما لو كان يستجوب، فخرجت إجاباته مقتضبة "من قبيل " تمام .. الحمد لله ، إن شاء الله،كله على الله"..

– على فكرة، المؤسسة خصصت لك غرفة في سكن عزاب مع بعض الزملاء، إن شاء الله تعجبك، قالها عادل، قبل أن يستدرك:

– لكن اليوم انت ضيفي.. هغديك " كبسة "، أشهر أكلة سعودية، متداركا: وإن لم تعد سعودية بعد أن غزت العالم.. كثير من المصريين يعشقونها حتى أن بعضهم يصطحب في أجازاته إلى مصر الأرز البسمتي والخلطة الخاصة بها..الآن أصبحت وجبة رئيسية ليس في الفنادق التي تستقطب سعوديين فحسب، وإنما في المنازل أيضا..

– نعم.. عدد كبير من المصريين قضوا عشرات السنوات بالسعودية وتَطَّع كثير منهم بالثقافة السعودية ليس في المأكل فقط وإنما في الملبس وطريقة الحياة بصفة عامة.. أرى النقاب وقد غزا الجامعات المصرية، وفي قريتي أرى كثيرا ممن خرجوا للعمل في الخليج وقد أصبح الجلباب الخليجي زيا لهم، ناهيك عن الساعة الصفراء المذهبة والعطور الفواحة، وغيرها مما لم نكن نره من قبل. إمام مسجدنا الكبير في خطبة الجمعة لا يمكن لك أن تفرقه عن شيوخ الحرم في الملبس والأداء.. حتى مساكن الريف لدينا ورغم أنها أصبحت ضيقة لكن العديد ممن عمل في السعودية شيد مسكنه على هذا النمط " حمامين "إن تيسر" وغرفة خارجية مستقلة للضيوف، بالتأكيد أعلم الكثير عن تلك الثقافة التي غزت بلادنا منذ فترة..

– ما شاء الله..قالها بشئ من الغبطة، ثم أردف:

– مؤكد أنك لن تواجه صعوبات في الإقامة هنا.. حدثني الأستاذ شعبان أنك لم تتزوج بعد..

– عقدت قراني منذ أشهر عدة، لكن لم أدخل بعد، و أتعشم أن استقدمها قريبا..

فاجأه بسؤال غريب:

– وهل زوجتك تأثرت هي الأخرى بالثقافة السعودية؟

صمت للحظة، ثم تساءل:

أتقصد النقاب؟

– نعم.

رد سريعا، دون تردد:

– لا لا لا.. ملناش في الكلام ده.. صحيح نحن محافظون، متدينون، وكلانا يحفظ كثيرا من القرآن، غير أننا لا نحب التزمت.. هكذا كانت أمي تستخدم هذا اللفظ " التزمت".

– الحاجة بخير؟

– الحمد لله على كل حال.. هي ملازمة للفراش بسبب المرض.

– شفاها الله.. نحن إخوانك.. تعامل معنا على هذا الأساس، لو احتجت أي شئ إحنا تحت أمرك.

لفتت صيغة "الجمع" نظر حسين، ولم يع لأول الأمر المقصود بـ "إحنا" قبل أن يؤولها إلى المؤسسة باعتباره هنا ممثلا لها.. نهض عادل ببطء وشعر حسين بإحراج لتأخره في الرد فسارع: ربنا يديم المعروف.

كانت سيارة الهيئة قد أبطأت في مواجهة باب المؤسسة و" المطوع " يردد بلهجة آمرة: الصلاة .. الصلاة. حين خرجا سويا باتجاه المسجد، بادره عادل موضحا: إنها هيئة الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تجوب الشوارع وقت الصلاة، لها صلاحية القبض على من لم يغلق محله أو مؤسسته وقت الصلاة، في المرة الأولي يأُخذون عليه إقرارا "بالبصمة، وفي الثانية يرُحل ويبُعد عن البلاد..

– لكن.. ألا ترى أن إجبار الناس على الصلاة يفقدها أهم العناصر،" النية"، ويخرجها من كونها لله إلى الخشية من الترحيل؟

– الصلاة عماد الدين يا بشمهندس، هي العهد الذي بين الكفر والإسلام..الرسول همَّ أن يحرق بيوت من تخلفوا عن صلاة الجماعة في المسجد.

– لا خلاف على أهمية الصلاة في الإسلام، كما أن فضل الصلاة في المسجد على الصلاة في البيت أو السوق لا ينفي صحتها في البيت أو السوق، الخلاف هو في " إجبار " أصحاب المحال على إغلاقها ودفع الناس" قهرا " إلى المساجد للصلاة..ظني أن الناس على عهد رسول الله وصحابته الكرام كانوا يغلقون المحال و يذهبون للصلاة في المساجد طوعا لا إكراها.. ثم أن الرسول" همَّ " بمعاقبة المتخلفين عن صلاة الجماعة في المسجد غير أنه لم يفعل.

– يا بشمهندس إجبار الناس على إغلاق المحال والذهاب إلى المساجد حتى يسمعوا كلام الله، فتخشع قلوبهم..

– أَوتعتقد أن القلوب تخشع بالإجبار؟

لم يمنحه حسين فرصة للإجابة وإنما رد سريعا على نفسه:

– كلا والله، إنها تنفر بالإجبار، كما أن الإجبار يفقد الحرية في الاختيار، الله تعالى لم يجبر الناس على توحيده فكيف يجبرهم بعض العباد على عبادة رب العباد..

لم يتوقع عادل كل هذا الجدل من حسين لا سيما أنه أول لقاء يجمعه به، لم يعرفه إلا من ساعات عده، امتلك المبادرة قائلا:

– يابشمهندس، صحيح" لا إكراه في الدين" ، أَما وقد دخلت الدين، فأنت مجبر على أداء تعاليمه..

يرد حسين بشئ من التحدي:

– أهي: لا أكراه "في" الدين أم "على" الدين؟ ألا تعتقد أن " في الدين " تعني أنه لا أكراه في أي أمر من أمور الدين؟ ولو شاء ربك أن يقصرها على مجرد الدخول في الدين لقال " لا أكراه "على الدين"..

لم يجبه عادل، فقط راح يتأمله بشئ من التوجس، ثم ساد الصمت..

(٧)

ورثت سعاد مهنة الحياكة عن أمها، فكانت، تفصل الملابس، توسع الضيق وتضيق الواسع، تقصر هذا وتصل ذاك، تعمل أغطية الكنب وملاءات الأسرة.. ظلت وفية لهذه المهنة حتى بعدما التحقت بمدرسة القرية كإدارية. حين تتذكر دعوة أمها في جوف الليل أو تفوق أخيها الدراسي تنسحب العتمة قليلا من صدرها. فرحتها كانت نادرة ندرة نبتة في صحرائها، كانت تعتني بنبتتها، وتتفاني في رعايتها، لتكبر معها، وتظلل بفروعها مساحات بداخلها ضربتها شمس الصحراء.. فرحتها بتخرج أخيها وخطوبته من "سارة" وسفره للعمل بالخارج زادت من مساحة البهجة بداخلها.. كانت تعتقد أنها حققت شيئا وأن صحراءها الجرداء قد طالتها المياه و أصابها أخيرا شئ من الاخضرار.. من آن لآخر كان يهاجمها إحساس الأنوثة، فتشعر بالوحدة في هذه الصحراء الممتدة، غير أن مضاداتها سرعان ما تتصدى لهذا الشعور باستحضار ما كانت تحتفظ به في ذاكرتها من ضجر المتزوجات، ومشاكل الأولاد، ومعاملة الأزواج السيئة. لم تستطع أن تمنع شفتيها من انفراجة وهي تتذكر حوارا جرى بين المدرسات.. بدأته سميرة "مدرسة الرياضيات" وهي تتحدث عن ابنيها أحمد١٠ سنوات، وإبراهيم ١٢ سنة، حلمها أن يحفظا القرآن. ربما لم يكن دافعها دينيا محضا، وإنما كانت لا تريد لهما أن يكونا أقل من زملائهما، أجيال عديدة متعاقبة حفظت القرآن، أصبح كثير منهم أطباء ومهندسين. عندما وجهتهما للتعليم الأزهري كانت عيناها على إحدى الكُليتين " الطب أو الهندسة"، كانت تعلم أن فرصتيهما أكبر من خلال التعليم الأزهري، استماتت من أجل أن يحفظا القران. جلبت لهما شيخا مميزا..حين أخبرها أن لا وقت لديه، استعطفته أن يجد لهما وقتا.. وافقت على مضض حين خصص لهما هذا الموعد المزعج.. كان يأتيهم عقب صلاة الفجر إلى شقتهم بالطابق الثالث.. وراحت تقص كيف تفنن أحمدَ و إبراهيم في تطفيش الشيخ أو التزويغ من الحفظ.. تارة يفصلا الكهرباء عن جرس الباب الموجود أسفل البيت، ليقف الشيخ طويلا يرن الجرس ولا يسمعه أحد، فينصرف، وتارة أخرى يتصل أحدهما به ليعتذر منه و يخبره أنهما مسافران مع الأسرة.. هيجنوني.. لترد " حنان " مدرسة الاقتصاد المنزلي، صاحبة الأربعين عاما: هو فيه حد مرتاح، نقوم الصبح نصحي الأولاد للمدرسة، ونعمل فطار، ونلبس للمدارس، ونروح شغلنا، ونجي نحضر الغداء، ونذاكر للأولاد، ومطلوب في الليل نكون على سنجة عشرة عشان " البيه "، عينيه الزايغة لا تروح كده ولا كده.. فعلا أوعوا تفتكروا يا بنات إن الجواز راحة..

يضحكن منها، لتقطع أميرة الضحكات، إنما أنا شفت لكم حتة فيلم إمبارح، " نهر الحب "، فاتن حمامة وعمر الشريف، هو فيه كده يا بنات، شفتوه وهو بيبوسها؟! هو فيه بوس بالشكل ده؟

– لترد أميمه ساخرة: دا انت شكلك محرومة قوي، ليه يا بت!،هو انت ما بتتبسيش ولا إيه؟

– زي كده!!.. لا ورحمة أمي.

فيضحكن..

تتنهد ياسمين وتحتضن ملفا بين يديها " أمممممم.. هو فيه أحلى من الجواز ".. فطالعتها العيون بشيء من الحسد، " لتقاطعها " أميمة:

– انت يا بنتي يا دوب اسمك مكتوب بالرصاص في كشوف المتزوجات، بقالك شهرين بس، استني لحد ما تخلفي عيل ولا اثنين وبعدين نسمع رأيك في الجواز..

استمر الحوار واستمرت الضحكات.. بينما عادت هي، غابت في صحرائها الممتدة ربما بحثا عن سراب يرطب وحشتها ويمنحها شيئا من الحياة..

(٨)

كان "حسين" يشعر بنظرات البعض تلاحقه، حين أنهى صلاته، وسلم على محاوِطَيه، ثمة شئ ما جعله محط أنظارهم.. لعلها صلاته.. تنبه إلى تلك الاختلافات التي كانت تثير جدلا في قريته، التلفظ بالنية،كان يجد انتقادات واسعة من بعض العائدين، و كذا مصافحة من حولك عقب انتهاء الصلاة.. استوقفه عادل حين غادرا المسجد للسلام على بعض معارفه، كانوا من أصحاب اللحى الطويلة، غمروه بكلمات الترحاب ونظرات متفرسة أشعرته بالقلق. سألوه أيضا عن مصر وأخبار مصر، لم تخرج إجاباته عن سابقاتها.. وفي الطريق إلى منزله كان عادل يحدثه عن كل شئ.. أسماء الشوارع، المستشفى العام، الجوازات، المدارس..كل شئ، لكنه كان يقرنه دائما بنظيره في مصر، فالشوارع غير الشوارع، والمستشفيات، ومعاملة رجال الأمن للمواطن والمقيم، والمدارس التي لا يتجاوز عدد طلاب فصلها الواحد ٢٥ طالبا، لا أحد هنا يمشي في الشوارع، الكل لديه سيارة، لا مكان هنا للكتل البشرية المسماة " أتوبيس "، كل شئ هنا لا يقارن بمثيله في مصر.

إحساس بالضيق انتاب حسين، فهو يعلم ما فيها ويعلم أكثر مما قال، لكنه يكره أن يعايره أحد. كان يعتقد أن كل تلك الآفات لم تكن وليدة اللحظة وإنما هي موجودة ومتغلغلة، ليس في مصر وحدها ولكن في كثير من دول العالم "النايم" كما كان يفضل أن يطلق عليه، وحدها التقنيات الحديثة أخرجتها إلى السطح، وفي لحظة واحدة أراد كل المهمشين أن يتخلوا عن مواقعهم، الأمر الذي لا يتحمله أي اقتصاد، فكانت تلك القلائل التي نرى، والتي يظن أنها ستأخذ وقتا قبل أن تستقر.. كان دائم الغيرة على مصر، ربما كان الأمر عصبية أو حتى مرضا، وقد كان متعصبا، يعاني هذا المرض المزمن الذي عرضه لسخرية البعض حينا، وللشفقة أحيانا أخرى.كان يخوض معارك كثيرة على مواقع التواصل الاجتماعي، كثيرا من أصدقائه بل ومن أقاربه انفضوا عنه، وحين لا يجد حسين ما يبرر به عشقه لمصر رغم أنه كالآخرين عانى الفقر والتهميش كان يردد على الأقل هي من علمتني، فيها الأهل والأحباب، فيها النيل، فيها رائحة الطين وطعم الحياة بطولها وعرضها.

كان حسين صامتا يتطلع إلى كل شئ ويتصنع الإنصات، وصلا إلى المنزل. لم يختلف كثيرا عن منزل شعبان، دور أرضي في فيلا بمدخل خاص، دخلا إلى قسم الرجال، مدخل خاص بحمام، فتح المكيف واستأذن..

راح حسين يطالع المكان وكأن حديث عادل ترك أثره فيه، راح يقارن تلقائيا بحالهم في مصر.. الشقق الضيقة المكتظة بالبشر، والحمام الذي يقف أمامه المصريون بالطوابير، تذكر أباه وهو ينهره يوما ويقدم أخته، فنحن الرجال أقدر على التحمل كما قال.

عاد مُرحبا ومعه لفافة مفارش بلاستيك، فرد مساحة كبيرة منها، ثم بدأت الأطباق تتوالى تترا، أصناف عدة من اللحوم و المحاشي والمقبلات، إضافة إلى أصنافٍ من العصائر..

ما الذي حدث له وبهذه السرعة؟ راح يسأل نفسه مؤنبا: أين عصبيتك، أين غيرتك؟ أبهذه السرعة أثر فيك؟! ما بالك رحت تقارن كل شئ بنظيره في مصر؟ لماذا تتذكر الآن وجبات غذائك؟ تتراءى أمامك صورة أمك وهي تجلس وإلى جوارها "حلة " الأرز " المفلفل " تغرف منها في طبق كبير وضع على الطبلية، ثم توزع البطاطس المسلوقة وقد حمرتها جيدا. كنت دائما تطلب منها أن تسلق لكم بيضا وتحمره، كنت تعشق تلك الأكلة.. تبسم وردد في نفسه: وقتها كنا نشعر أننا أغنياء، لكن.. لماذا تتراءى هذه المشاهد الآن؟ أهو نوع من التمرد، أم حنين إلى الماضي؟

فاجأه عادل: ما بك.. أين ذهبت؟

– لا شي.. لماذا كل هذا؟! لستُ ضيفا..

– أنت صاحب بيت.. وهذا المعتاد.

– ربنا يزيدك.

ظن أن الأمر قد انتهى، وأنه على وشك أن يحبس بالشاي كعادة المصريين، غير أن أطباق الفاكهة والحلويات أخرت الشاي قليلا. فَرَدَ عادل منديلا ورقيا على الموكيت الفخم، أمسك برتقالة وقشرها بمنظر جمالي على هيئة وردة وقدمها إليه، ثم ما لبث أن التقط صباع موز وقشره وقدمه إليه، ولم يسأله أو ينتظر حتى يفرغ مما في يديه، بل سارع عادل وقطع تفاحة على هيئة شرائح والتقط إحداها ومد يده بها إليه. لم تفلح كل محاولاته في إيقاف هذا الكرم الباذخ، ووضع حد لهذا الإحراج الذي شعر به. جاء الدور على الشاي، لم يكن هو الآخر كالشاي الذي يعرف، ورغم أنه يعلم تلك الماركة جيدا إلا أن المذاق كان مختلفا، فقد أضاف إليه .كما أوضح له لاحقا . حبات من الهيل و القرنفل، لتمنحاه نكهة مميزة.

في مجلس الرجال، كما يطلقون عليه، تركه عادل ليستريح قليلا قبل أن يذهبا إلى العمل في فترته المسائية، ساعة ونصف تفصله عن أذان العصر. حاول أن يستريح قليلا غير أن الأفكار التي تزاحمه حالت بينه وبين الراحة.. راح يفكر في عمله الجديد، في شعبان، في عادل.. شغله هذا الكرم المفرط، وحين تذكر سارة، أمسك بهاتفه المحمول، وراح يطالع حفل قرانه وسط أهله وأحبابه، ذلك الحفل الذي أقامه في قاعة أفراح ببلدة شعبان المجاورة

لقريته، حضره الأهل والأحباب، وتراقص الجميع عل أنغام الموسيقى حتى ساعة متأخرة من الليل. ليلتها كانت " سارة " تمنعه من النظر إلى النساء المجاملات وهن يتراقصن على أنغام الموسيقى بنظرة مهددة ومتوعدة وهو يضحك من غيرتها المفرطة، ثم بعدها لم يعد يشعر بشيء، يبدو أن الأكل كبس على أنفاسه وراح في نوبة نوم وعلى شفتيه بقايا بسمة، وشيء من الفرح..

(٩)

لم تكن ناهد قد أمضت سوى شهور قليلة في عملها لدى الحاج إبراهيم البطران. كانت مصرة أن تنجح هذه المرة. كانت على استعداد لأن تدفع ثمنا ما رفضت دفعه في تجربتيها السابقتين فكان مصيرها الفصل. خبرات كافيه اكتسبتها تؤهلها للاستمرار. كل المؤشرات تؤكد أنها ستنجح هذه المرة. فقط، ما كان يقلقها هو أمر زواجها من سعيد، كانت تخشى أن تكون قد تسرعت لا سيما بعد أن استقرت في عملها الجديد، أجلت العرس أكثر من مرة رغم تأفف سعيد وعائلته، في كل مرة كانت تمنح نفسها وقتا إضافيا آخر، هذه المرة سألت نفسها " ما الضير من إتمام الزواج؟ الزواج لن يمنعها عن العمل، إنه سيطلق يدها، سيرفع عنها نظرات الأسرة القاسية، ثم أن سعيد لن يكون عائقا أمامها.. سعيد " رجلا ثلاثيني،، فارع الطويل ذو صدر مرتفع ولحية خفيفة، تخرج من معهد فني تجاري، حاله إلى حد ما ميسور، ليس بتلك الشخصية القوية، إنها تستطيع أن تشكله، بإمكانها أن تفعل ما تشاء دون أن تجد منه اعتراضا، تستطيع أن تحتويه، هو بالنسبة لها "خام "، عندما يتحدث إلى النساء يتعرق، أما جليطته ولبسه فهي قادرة على أن تغير فيه كثيرا لتجعل منه واجهة أمام الناس وفي الوقت ذاته لا تفقد حريتها في الحركة والتنقل والعمل.. بعد تفكير عميق وافقت على إتمام الزواج في موعده.. أقيم زفاف تقليدي عكس مزاج العروسين، فالعروس تعتبرها زيجة والسلام، والعريس غير مهتم بالشكليات، ما يشغله أن يستحوذ على جسدها يفرغ فيه كامن طاقته. المدهش أنها لم تدعُ الحاج إبراهيم، اقتصرت دعوتها على أحمدَ و سوسن. شيئا ما تجهله منعها أن تفعل. مؤكد ليست هيئة سعيد الرثة ولا جليطته، فهي وإن كانت تستعار منه في داخلها إلا أنها تعلم أن الأمر غَدا واقعا. هو أمر آخر كامن بأعماقها دفعها أن تتخلى عن الذوق وهي تطلب منه عدم الحضور. استغرب من طلبها، لكنه نزل على رغبتها ولم يحضر. قبل الفرح بأيام قدم هديته، خاتما من الذهب. حاولت أن تجد تفسيرا لتصرفها.. ربما أنها لم تكن تريد له أن يراها إلى جوار رجل آخر، أو أنها لا تريد له أن يظهر أمامهم فتثير فضولهم، وتوارب بابا حرصت على أن يظل محكم الإغلاق. كانت حريصة على استمرار تلك العلاقة. كانت تدرك أن استمرارها يتطلب السرية.. ورغم أنها لم تجد تفسيرا بعينه إلا أنها كانت راضية عن تصرفها.. أقيم الفرح في قاعة أفراح من تلك المنتشرة في الطريق إلى المنصورة. لم يعد الأمر معقدا كما كان، لقد وفرت تلك القاعات وقتا وجهدا.. كانت البيوت تضيق بالمعازيم ويصعب فيها الحركة والتنقل. على قدم وساق كان يقف أهل العروسين وأقاربهما حتى تنتهي المناسبة. كانت العروس تجلس في الشارع أمام بيتها أو في غرفة من غرف البيت، ومن خلفها سجادة كبيرة ربما زينت بجريدتي نخيل متقاطعتين على شكل أقواس" النصر" ويلتف النسوة يغنين ويرقصن على إيقاع طبلة يجيدها كثير من النساء وسط أغانٍ شعبية دأبوا عليها، نسخة مكررة تجدها في معظم قرى مصر من أقصاها لأقصاها، غير

أن تلك القاعات قد يسرت الأمر، حيث لم يعد هنالك زحام في بيت العروسين . باصات عدة تقل المعازيم إلى قاعة الفرح . فرقة أفراح تحي الحفل، ووجبة مغلفة أو قطع جاتوه مصحوبة بمشروب تقدم للضيوف. كانت تشعر بعدم الراحة رغم البسمة التي ترسمها من حين لآخر على شفتيها، تتقبل التهاني والقبلات. انتهى الفرح بعد أن أوعزت لسعيد " مش كفاية بقى "، هو الآخر كان يريد للحفل أن ينتهي، غير أنه لم يكن ليجرؤ على الإفصاح عن رغبته تلك، دائما يخشى إغضابها.. بدا ذلك في مواقف عديدة، أثناء اختيار الشبكة، والقاعة، وتوقيت الفرح، وأشياء أخرى عديدة.. حتى عندما أصرت ناهد على النزول إلى العمل بعد أسبوع واحد فقط من زواجهما، رضخ لها، وسمح لها بالعودة إلى عملها وسط استهجان أمه. شخصية ناهد القوية كانت دائما تحسم الكثير من المواقف..

(١٠)

بعد طول انتظار دخل أحدهم، وضع مسدسا كان يحمله في جراب تحت إبطه على منضدة صغيرة وجلس على مقعد في مواجهة المنضدة، أشعل سيجارة ونفث الدخان لأعلى باتجاه سقف الغرفة المنخفض.. سكت برهة ثم سأله:

– قلتلي الحكاية أيه يا حسين؟

– الحكاية كررتها أكثر من مرة يافندم.

– لكن أنا عايز أسمعها منك تاني وبالتفصيل الممل.. أعتقد إن معندكش مانع؟

– يا فندم اللي قلته هو اللي هقوله ثاني وثالث وهو اللي حصل بالضبط، مش هتلاقي عندي جديد..

– زام، وهو يهز رأسه كمن يتوعد.. يعني انت معندكش جديد، قالها وهو يعبث بقلم في يديه بعصبية وعيناه تجد طريقهما إلى الأرض كأنما يكظم غيظه، قبل أن يرتفع فجأة ببصره نحوه وهو يقول: لو معندكش جديد يا " أخ " حسين أحنا بأه عندنا الجديد..

أثارت تلك الكلمات فضول حسين، وظل متأهبا لمعرفة ذلك الجديد. تطلعه لهذا الجديد لم يكن لكونه شابا والشباب وعلى عكس الكهول متشوق لكل ما هو جديد، فهو وإن كان شابا إلا أنه من تلك القلة التي تؤُثر السلامة و تتحسب لكل جديد، ما دفعه هذه المرة لانتظار هذا الجديد، أنه كان يعيش الأسوأ ولم يكن هنالك أسوأ مما هو كائن، لذا كان متلهفا لهذا الجديد لربما أحدث تغييرا.

دق المحقق جرسا، دخل مجند يرتدي ملابس مدنية، أشار إليه فأدخل شابة، حين رآها حسين تسمرت عيناه ونهض فزعا. همت أن تسرع باتجاهه، منعها المجند بيده، غير أنه لم يستطع أن يمنعها من إطلاق عبارات ثائرة غاضبة، متأثرة بما رأت عليه حسين. جذبها المجند إلى الخارج بناء على إشارة المحقق وهي تحاول التملص من يده وتواصل التهجم بالسباب و الحسبنة عليهم، كانت تتساءل عما فعله ليحدث له كل هذا..

قفز إلى ذهنه سريعا مشهد اغتصاب محتمل هي بطلته، وهاجمته الهواجس بضراوة، و بانكسار و صوت خفيض معجون بالذل والرجاء:

– وهي مالها يا فندم؟ إيه دخلها في الموضوع؟ ذنبها إيه؟ لو لكم حق خذوه مني أنا..

تأمل المحقق هلع حسين بنشوة المنتصر، و بشئ من التهكم خاطبه:

– إيثار.. شئ جميل.. والإيثار أعلى مراتب الحب.. يعني يخليك كده تضحي ولو بحياتك في سبيل ال ...نقول " المحبوب".. سكت للحظة قبل أن يكمل: أو ممكن في سبيل " التنظيم".. إسقاط أراد له المحقق له أن يكون أبعد من الموقف.

بتؤدة تحرك المحقق وهو يطفئ السيجارة في طفاية صغيرة على مكتبه، ثم خاطبه وهو ويضغط على كتفه ليجلسه محله: سألتني هي ذنبها إيه؟ سؤال وجيه.. ثم ارتفع صوته محتدا: ذنبها إنها مراتك يا حسين.

وواصل وقد خفض قليلا من نبرة صوته:

– ما انت اللي معصلج ومنشف راسك يا حسين.. اعترف، قول الحقيقة.. وكأنه قرأ ما بداخله فخاطبه بلغة ظاهرها الرحمة باطنها التهديد والعذاب: وبعدين يا راجل مالك خايف كدا ليه؟ مش هنعملها اللي في بالك، زمن سعاد حسني أو زينب وفرج خلاص ولّى وانتهى، احنا بس جبناها تواجهك باللي انت مش عايز تقوله وتقر بيه.." إنك معاهم "، وإنها اعترضت على تواجدك معاهم وسابتك ونزلت مصر وانت لسه معاهم.. وبما إنك لسه بتنكر، قلنا نواجهك بيها، يمكن تفتكر، وبالمرة نفكرك إن لك زوجة وابن..

– ازاي أكون معاهم يافندم زي حضرتك ما بتقول، وهما بيحاربوني حتى في شغلي؟ لم يكتفوا بالمضايقات وافتعال الأزمات، وتأخير الرواتب، والمعاملة السيئة التي دفعتني لطلب نقل الكفالة والتي وافقوا عليها مضطرين بعد تهديدي باللجوء إلى مكتب العمل، بل أنهم شوهوا صورتي أمام الكفيل الذي انتويت أن انقل عليه لدرجة أثارت دهشته ودفعته أن يهمس لي " انت عامل لهم إيه يا بني عشان يكرهوك بالشكل ده" ؟!.

لم يلتفت المحقق كثيرا إلى كلامه أو هكذا بدا، إنما اقترب منه، فتح مظروفا في يده، وبزهو المنتصر اخرج ما فيه، وألقى به أمام حسين..

(١١)

في شارع بورسعيد التجاري كانت الحركة على أشدها في ذاك الصباح الباكر الذي لا يخلو من نسمة تلفح الوجوه تختلط بعرق الكادحين وأنين الشقيانين، نزلت ناهد على رأس الشارع وانحرفت يمينا إلى سوق الخواجات الضيق، تحركت في شموخ بضع أمتار وأدلفت إلى محل الحاج إبراهيم البطران. حين رأتها سوسن تركت ما في يدها وفتحت عينيها دهشة، قبل أن تمازحها:

– يا إلهي.. أحقا ما أرى؟! عروس تهجر عش الزوجية مبكرا، ترى ما السبب ياولاد؟

التفت إليها أحمد وهو يقول مندهشا:

– هو فيه حد يسيب العسل ويجي للهم ده؟

– اصلكم وحشتوني ومقدرتش على بعدكم، ثم ضحكت وهي تشرح لهم كمدرس بين طلابه: م الآخر انا ما بأقدرش على قعدت البيت.. بازهق.. بطق..

تتدخل سوسن:

– ولا يمكن العسل مطلعش عسل..

– عادي..قالتها ناهد وهي تستغرب اندهاشهما من عودتها السريعة.

تصر سوسن على تخطئتها:

– يا بنتي هو انت بتتجوزي كل يوم.. فرصة كنت تريحي م الشغل كم يوم كمان تتهني بيهم، خصوصا إن الحاج مش ممانع ومرتبك شغال..

– قلت لك مبطقيش قعدت البيت يا سوسن.. بكون مخنوقة، مش قادرة أخذ نفسي.. بحس إن حاجة بتكلني في جتيتي.. وبدل ما اخرج هنا ولا هنا، ودا يقول ودا يعيد، قلت ارجع الشغل.

كانوا في حوارهم حين دخل الحاج إبراهيم، كان قد اعتاد أن يأتي مبكرا، يترك سيارته في الشارع الرئيسي، ثم يأتي هذه الخطوات سيرا على الإقدام، منها رياضة .كما يقول . ومنها حرصا على السيارة لضيق سوق الخواجات، كما أن السوق لا يتحمل فيترك فرصة للعملاء.. حين رآها انبسطت أسارير وجهه، وعلت شفتيه ابتسامة وهو يرحب بها.

لم يخلو ترحيبه من الغمز واللمز ومحاولة معرفة سر هجرها لبيت الزوجية سريعا، مازحها: انت ملحقتيش يا ناهد.. ولا مش قادرة على بعدنا..

ضحكت ضحكة خبيثة ثم بصوت ناعم مذيب للأعصاب: هو احنا نقدر على بعدك برضه ياحاج. خشيت أن تفضحها كلماتها فأردفت " دا انت الخير والبركة "..

دائما تهزمه ضحكاتها، تأسره همساتها. كانت في أوج زينتها، حركت كلماتها شوقه إليها، قال:

– المفروض نحتفل بالعروسة النهارده، أول يوم تجي بعد الفرح، لازم نحتفل بيها احتفالا يليق بعروسة.

التقطت الرسالة من كلماته ونظراته، أطرقت برأسها إلى الأرض في خجل غريب عليها.. لم يتغيب أحمد طويلا، عاد سريعا بالتورتة المخصوص التي أوصى بها الحاج مع بعض العصائر. وبمجرد أن فرغوا مال نحوها، وهمس في أذنها"هجيلك في نفس الميعاد لنحتفل سويا".. تلفتت لربما سمعه أحد، ولما أطمئنت هرعت إلى عملها بينما صعد الحاج إلى الطابق العلوي لانجاز بعض المهام.

حين انكسرت حرارة الجو وتأهبت الشمس للرحيل كانت ناهد تستأذن الحاج أمامهم في الانصراف. عندما سمح لها كانت نظراته المستقيمة تؤكد الموعد الذي لم يتأخر كثيرا. ساعة واحدة كانت كل قدرته على الاحتمال، ساعة واحدة كافيه لتبديد أي شك عن علاقاتهما، وأيضا كافيه لها لعبور كوبري طلخا العتيق والسير قليلا وصولا إلى شقته بالطابق الثاني في ذلك البرج السكني. كان الحاج قد استأجر هذه الشقة خصيصا لمزاجه. واختار مكانها بعناية، فهي من ناحية بعيدة عن حي توريل حيث يسكن مع زوجته الحاجة نبيلة، كما لم تكن بعيده عن شارع بورسعيد حيث محله، فقط أمتار معدودة تبعدها عن النيل الذي يفصل بين مدينتي طلخا و المنصورة.. كانت في أوج زينتها حين دخل عليها. ارتدت ذلك القميص الأسود الشفاف الذي رفضت أن ترتديه مرات عدة. حدثها مرات أنه يريد أن يراه عليها أو يراها فيه.. كان تصفه بالشوارع، مفتح من كل جانب. مختلف ذلك اليوم.. ارتدت القميص فبدت ملكة ببشرتها البيضاء وجسدها اللدن. كانت عروسة بحق ليلة دخلتها. ارتويا من الحب في ذلك اليوم ما أشبعهما. في هذه الليلة لم يكن هنالك سقف للثمن ولا حدود، مع تلك الحرارة التي تنبعث من جسديهما كل شئ كان مباحا. رقصت له كما لم تفعل من قبل، أخذت بتلابيب عقله وأسكرته كما لم تفعل الخمر، همست وتدللت وتأوهت، كانت تقترب منه حتى إذا ما أراد أن يحتويها بين ذراعيه تمنعت بدلال وتفلتت من بين يديه، فيتدفق الدم في عروقه ويزداد إصرارا على الإمساك بها وهي تراوغه حتى أفلح، أو هي شاءت أن تكون هذه هي اللحظة. استسلمت له في انهيار، راحا سويا يتجرعان من المتعة ويرويا ظمأ جسديهما. يلعق جيدها بفمه في خدر ثم يهوي

تدريجيا حتى يدفن وجهه في صدرها ويهبط ثم يهبط إلى أن يجلس تحت قدميها يقبل أصابعها فتشعر بضآلته أمامها ثم يصعد مرة أخرى. أخذا يتفننان في إشباع رغباتهما بألوان شتى من الفجور وينهلان من لذة آثمة قبل أن يستلقيا على ظهريهما في استرخاء تام..

(١٢)

حين فتح المحقق المظروف اخرج صورا وألقاها أمام حسين قائلا:

– أيه رأيك في الصور دي؟

طالعها حسين بعينيه دون أن يمسها، ثم ارتفع ببصره صوب المحقق وقال:

– حين قررت أن استقدم زوجتي كانوا إلى جواري، استقبلتها عروسا في المطار. عن قصدٍ فّوت شعبان الفرصة على بعض الأصدقاء للاحتفاء بي حين زاغ منهم بسيارته، توقف بنا للحظات أمام إستديو، أخذنا بضع صورٍ قبل أن يواصل القيادة من جديد باتجاه المنزل، كان كل شئ مرتبا، الطابق العلوي الذي هو شقتي، والذي حجزه لي شعبان حين فرغ من ساكنيه، وطالبني بسرعة استئجاره باعتباره فرصة، كانت النساء في استقبال العروس وقد أعددنا برنامجا للحفل، وفي الطابق الأرضي حيث يسكن شعبان أعدّ هو ومجموعة من أصدقائه الذين اعرف بعضهم برنامجا للاحتفال بي، والتقطت لي هذه الصور وأنا معهم..

دون أن يلتفت إليه، دار المحقق حول حسين وخاطبه بلهجة الخائف عليه:

– يا حسين، احنا عايزين نساعدك وفي نفس الوقت نساعد البلد، انت شايف حجم المؤامرة على البلد أد أيه، البلد مستهدفة يا حسين، انت لازم تساعدنا عشان مراتك وابنك، عشان المستقبل، انت بتقول انك مش معاهم ومن شوية بتقول انهم عملوا لك فرح ووقفوا جنبك، طب ازاي تقول متعرفهمش ومالكش علاقة بهم؟ مش شايف ان دا تناقض؟

يا لقسوتهم! مال هؤلاء المحققين قاسية قلوبهم؟ كيف نثبت لهم أننا أبرياء؟ من أين لهم بهذه الغلظة، من أين لهم هذه القدرة على الضغط ثم الضغط ثم الضغط؟ لقد أوشكت على الانفجار..كررتها أكثر من مرة، قلتها للمحقق السابق، ولسلف السابق، قلتها مرارا، كتبوها عني، سجلوها في أوراقهم الرسمية، قلت لهم أنهم وقفوا إلى جواري، لم أكن اعلم أنهم إخوان وحتى ولو علمت، لم يكن علمي ليغير في الأمر شيئا، فالإخوان كانوا يمارسون عملهم بحرية في مصر، بل أن مرشد الإخوان كان يمارس عمله من مكتب الإرشاد في قلب القاهرة ولم يتعرض له أحد بسوء، لذا لم أكن اكترث وأعطى الأمر اهتماما خاصا، لن تفرق معي إن كانوا أخوانا أم لا. فقط كنت اقضي معهم وقتا طيبا يخفف عني آثار الغربة، كنت أشاركهم ممارسة الرياضة التي أعشقها، واذهب معهم إلى المتنزهات، نقضي وقتا طيبا في الشواء، وأحيانا كنا نذهب إلى الاستراحات ليوم كامل، نقضي بعضه في حمام السباحة والباقي في

ممارسة الأنشطة الرياضية والمسابقات الدينية، كما أنني كنت اعتقد أنهم يقربونني إلى الله، وقد كنت في حاجة لذلك، حين انتقلت إلى شقة اكبر، كانت لأحدهم وقد ترك لي إلى جانب بعض من قطع الأثاث مكتبة كبيرة من الكتب الدينية، لاحقا أنها لمشايخهم، أخبروني أنهم سيزورونني ليلة الخميس للتهنئة بالشقة الجديدة، رحبت بذلك. وفي الموعد المحدد حضر عدد كبير إلى منزلي، لم أكن أعرف كثيرا منهم، استأذنت لإحضار العصير والواجب المعتاد في مثل هذه اللقاءات، وعند عودتي إذا بالدكتور محسن يأخذ الكلمة ويحمد الله ويثني عليه ويذكرنا بنعمة الأخوة التي مّن الله علينا بها، وأعلن حينها أني من الإخوان، ألجمتني المفاجأة، فسكت ولم انبس ببنت شفة..

في اليوم التالي ذهبت إلى ماجد الغرباوي، أعز أصدقائي، لا أُخفي عليه سرا، وهو كذلك، لا يخفي علّي شيئا، حتى جلساته معهم، كان يحدثني بأمرها. كان ماجد يعمل مدرسا في مدرسة خاصة، وكنت ألتقية في مناسبات رياضية أو في الحديقة، وكان يزورني في العمل أو في البيت كلما سنحت الفرصة. استفدت من أجازة الجمعة وذهبت له عصرا، بادئته معاتبا:

– مقلتليش يعني إنك إخوان..

تلعثم ماجد قليلا قبل أن يتمالك نفسه قائلا:

– ما انت عارف إني بحضر معاهم وبحكيلك كثير عن اللي بيحصل..

– الحضور حاجة وانك منهم حاجة ثانية.

سكت حسين للحظة قبل أن يواصل حديثة ويرفع عن ماجد ما أصابه من حرج:

– أنا كمان كنت بحضر، لكن مكنتش معاهم لحد امبارح بس ..

– يعني ايه لـ "امباح بس "؟

– كانوا عندي امبارح، و الدكتور محسن قالي إني من الإخوان..

– طب وايه يعني؟ هتفرق معاك ايه؟

– يعني انت منهم؟

– نفس اللي تعمل معاك بالضبط اتعمل معايه.. فجأة كنا قاعدين في جلسة وصرحوا لي لأول مرة انهم اخوان واني معاهم..

– وعملت ايه؟

– هعمل ايه؟ عادي..

– يعني انت حابب تبقى معاهم ؟

ألقى ماجد بالكرة في ملعب حسين حين سأله:

– انت ايه رأيك انت؟ انت حابب تبقى معاهم؟

– أنا مبهزرش يا ماجد، ما انت عارفني، محبش موضوع التحزب الديني ده، نلعب معاهم ماشي، نخرج، نقرأ قرآن ماشي، لكن إخوان وتنظيمات ماليش أنا في الدور ده..

– شوف يا حسين، أنا زيك بالضبط، محبش الكلام ده، لكن طالما رجلك جت يا حبيبي انسى انك تطلع بسهولة، وبعدين إحنا لنا مصالح معاهم، عندك انا مثلا، شوف الدروس اللي بيجبوهالي، ومجموعات التقوية اللي بيعملوها لأولادهم واللي بدرس أنا فيها، أوقات كثيرة بنروح نكشف ببلاش، بنلعب معاهم، بنروح استراحات، بنستلف منهم فلوس لو احتاجنا، أي واسطة في أي مصلحة بتلاقيهم، لما أنت حبيت تطلع رخصة قيادة مين اللي ساعدك في مدرسة المرور، مين اللي بيجيب دروس لمراتك....؟.
سكت للحظات ثم أردف:

– الناس دي مبلغوناش بده الا بعد ما بقوا جزءا من حياتنا، مصالحنا اتشابكت معاهم، الخروج منهم صعب، لكن لو عايز رأي، نفضل معاهم نقضي وقت كويس ويوم نروح الجلسات وعشرة نعتذر . ويوم ما ننزل مصر نقول لهم سلام عليكم، هما من سكة واحنا من سكة، هما يعني كانوا مضُّونا على ورق؟

فأخذت برأيه لا سيما أن الإخوان كانوا يمارسون حياتهم بشكل طبيعي في مصر دون تضيق..

حين أعاد حسين سرد التفاصيل لم يبدوا أن المحقق اقتنع، بل واصل الضغط قائلا:

– كلامك دا يا حسين بيؤكد أنك منهم، مش لآن الدكتور محسن قال إنك إخوان بس، ولكن باعترافك انت شخصيا ومن خلال حوارك مع ماجد الغرباوي، ومع ذلك لسه مُصِر إنك مش منهم، طب نصدقك إزاي؟!

أجاب حسين بصوت واهن، يخرج بصعوبة من جسد عصف به الإرهاق:

– يا فندم مش معنى أنه قال انك معانا، وبحضر بعض لقاءاتهم، ابقى إخوان، عضو الإخوان بيمر بمراحل ثلاثة،مؤيد ،منتسب، منتظم، بعدين يبقى عضو عامل، أنا لم اجتز حتى المرحلة الأولى، كثير السؤال ومحاول الفهم مثلي لا يستقيم معهم، غير مرحب به، ورغم ذلك بيبقون عليه، ليس حبا وأُنسا به، وإنما من أجل أسرته، من أجل محمد ابني والقادمون إن قُدر أن يكون لي قادمون، إنهم يعتقدون أن تربية الصغار ليست فقط أقل كلفة من تجنيدهم كبارا، وإنما هم أيضا أكثر إيمانا بالفكرة وأكثر استعدادا للبذل والتضحية، لذا يتحملون من هم على شاكلتي من أجل أبنائهم..

وبانهيار، راح حسين يقسم أنه ليس منهم، ثم دفن وجهه بين يديه وتملكته نوبة بكاء شديدة.. أخرج المحقق سيجارة، وأمر بإعادته لمحبسه..

(١٣)

حين يلتقيها كان الوقت يمر سريعا، يحدثها الحاج أن لحظات السعادة دائما قصيرة، كانت تمازحه " أصل انت معندكش اللي يسأل عليك" في إشارة إلى عدم اهتمام الحاجة نبيلة به، أنا بأه بينصبوا لي المحاكم..كانت ناهد قد اعتادت التأخير في الأيام التي تلتقيه. في واحدة من تلك الأيام تأخرت إلى ما بعد الحادية عشر مساء، لم تكن مستعدة أن تضحي بالسعادة التي تغمرها في شجار معتاد..غير أن الحاجة " تفيده" لم تكن لتسمح أن تمر هذه الفرصة دون أن تعكر صفوها. الحادية عشر مساء في عرف القرية ساعة متأخرة. وعودتها في هذا التوقيت مؤكد سيجعلها عرضة للقيل والقال وهو ما يمس شرف العائلة، وهو ما لا تسمح به، كله إلا كده. حين وطأت قدماها المنزل استقبلتها بذات الأسئلة عن سر تأخرها، ثم راحت تكيل لها الاتهامات الطاعنة في شرفها، اتهامات أطاحت بهدوء ناهد الذي لم يصمد طويلا، السكوت على الطعن في الشرف يؤكد التهمة، نَحَّت ناهد الحسابات جانبا، أزالت الفواصل العمرية، وبادلتها هي الأخرى السباب بسباب، والصوت العالي بمثله، حين ذكرتها بما يقال عنها، وبررت ذلك بأن أهلها لم يربوها، ردت ناهد بعنف: قطع لسان اللي يقول عليَّ كلمة واحدة، أنا اشرف منك ومنهم وم اللي يشدد لكم.

مشهد تكرر كثيرا يفقد سعيد معه القدرة على الفعل، يظل حائرا بين قوتين لا حول له ولا قوة.الأمر الذي دفع ناهد إلى ترك البيت بعد أن عنفته قائلة: " لما تبقى راجل وتقدر تحمي مراتك وتحافظ عليها ابقى تعالى خذني من بيت أبويا، دا إذا بقيت راجل!!

غادرت بعد شهر ونصف من الزواج، ثم لم تعد. انتشر القيل والقال، كل طرف يلقي باللائمة على الآخر ويشوهه. ضغوط العائلة لم تفلح في دفع ناهد للعودة، قابله إصرار من سعيد على عدم الطلاق. مساع الخير التي قادها إمام المسجد مع شيخ القرية لم تفلح في رأب الصدع. فكان قرار اللجنة أن تخلعه وديا وتبريه من الحق والمستحق. غير أن جديدا جد لم يكن في الحسبان أوقف خطوات الخُلع ولو إلى حين، وإن ظلت هي في بيت أبيها..

(١٤)

من على مكتبه بالطابق العلوي جلس الحاج إبراهيم في مواجهة شخص ملتحٍ وقد اقتربا وجههما من بعضٍ خشية أن يسمعهما أحد، بادره الضيف بصوت خفيض:

– انت عارف ظروف الجماعة الآن يا حاج، اعتقالات وتضيق، الظرف يحتاج مزيدا من الدعم..

– تعلم أني لم أتأخر يوما في دعم الجماعة، أتذكر اعتصام رابعة! من الذي تكفل بالخيام وجزء كبير من الطعام؟ من الذي كان يدفع للحضور؟ جزء كبير كنت أتحمله أنا، لكن الآن الظروف تغيرت، السوق كما ترى، واقف.. أجيب منين؟

– لكن الظرف تاريخي، وان مجيناش على نفسنا شوية هنخسر كثير..

– أنا لا أتأخر، لكن الآن مش قادر..

– يعني أقول للجماعة أيه؟

– قلهم ده.. أنا تحت أمركم، لكن الآن مش قادر.. مفيش.. السوق نايم..

استأذن وانصرف. هم الحاج أن يكسر قلة خلفه، حاول مرارا التهرب منهم والمراوغة لعدم الدفع، امتناعه عن الدفع لم يكن لضيق ذات اليد كما ادعى، فلديه الكثير وإنما هو تغير وانحياز للأقوى، والدولة الآن هي الأقوى. هو يبحث دائما عن مصلحته الشخصية وقد كانت مصلحته في مرحلة ما مع الجماعة، انضم إليها شابا حين استقطبوه في الخارج، ووفروا له فرصة عمل، اقرضوه مبلغا اشترى به سيارة وعمل سائقا تحت الطلب.. يوصل المسافرين من وإلى المطار، أو العمال إلى أعمالهم. ثم في مرحلة لا حقه ادخلوه إلى سلك المقاولات، ذلك القطاع الكبير الذي يستقطب جانبا كبيرا من أموال الجماعة وتستثمر فيه بقوة حتى أنها تحتكر هذا القطاع من خلال أعضائها الذين يتخذون من كفلائهم واجهات فقط لتسيير الأمور الإدارية والحكومية. ورغم أنه يكره هذا العمل إلا انه اجتهد كثيرا لينجح، يصحو قبل أن تصحو الشمس، يتنقل بين شوارع المدينة وأزقتها الهادئة، تزكم أنفه نسمة الهواء الطرية المشبعة برائحة الطعام الصادرة من تلك المطاعم المتناثرة والتي فتحت أبوابها مبكرا..عليه أن يمر على العمال، نجارين مسلح وحدادين وبنائيين وغيرهم من العمالة وفق برنامج سير يومي يعلم مساره مسبقا. بدأ يكتسب ثقتهم، بدؤوا يمنحوه "مرمات" صغيرة ك "سور" مدرسة أو فيلا. بدأ يكبر معهم، عمل مع المعلم أحمد أبو مسلم، لم يكن المعلم أحمد مجرد مقاول معروف وإنما كان قطبا إخوانيا.. نشأ في إمبابة بالقاهرة في كنف

الإخوان وتربى على أيديهم، وسافر صغيرا إلى السعودية عن طريقهم، كبر معهم وكبرت تضحياته..كان خادما للجميع، يصرف بسخاء ويسارع في الإنفاق على الدعوة.. عندما يفتحون باب التبرع نصرة للدعوة كان يتقدم الصفوف، كان سخيا في الإنفاق دعما للإخوان في معاركهم الانتخابية ضد من وصفهم بالفسق.. إلى جانب ذلك كان مقاولا ناجحا، ضليعا بالمناقصات الحكومية وحساب تكاليف المشاريع والمواد المعتمدة من قبل الجهات الحكومية وعلى صلات بموردي هذه المواد. خبراته الكبيرة مكنته من أن يكون لاعبا أساسيا في مجاله، يلجأ إليه كثير من المهندسين والمؤسسات الجديدة، يأخذ مشاريعا من الباطن يتولى هو تنفيذها أو يجلب من يساعده فيها. وكان قد استعان بإبراهيم البطران، تأمل فيه خيرا، ووجد فيه شابا طموحا قادرا على العطاء، ناهيك عن رغبته أن يكون هو بابه للولوج إلى الجماعة.. تقرب منه كثيرا وقربه إليه، خرج معه إلى المتنزهات، استضافه في بيته مرات عدة، توطدت العلاقة بينهما حتى دخل إلى التنظيم عبر بوابته وأصبح في نطاق مسئولياته. عرض عليه الزواج من ابنته "نبيلة"، ولم يتعجل رده، إنما منحه وقتا كافيا للتفكير.. نبيلة هي البنت الكبرى للمقاول أحمد أبو مسلم، ولدت بالسعودية وتربت وتعلمت هناك حتى فرغت من الثانوية، فأخذت تتنقل بين السعودية ومصر إلى أن حصلت على بكالوريوس الهندسة من إحدى الجامعات الخاصة، تزوجت من مهندس إخواني مقيم في السعودية وتبين أن لديها مشاكل في الإنجاب، فكانت تتردد كثيرا على مكة، عشرات العمُرات، تجلس لساعات طوال في كنف الكعبة، لسانها يلهج بالدعاء والرجاء، وعيونها تذرف الدمع مبتهلة إلى الله أن يرزقها الذرية الصالحة، ثقتها في الله لم تنقطع. في طريق العودة من إحدى العمرات كانت تجلس إلى جواره عندما ارتطمت السيارة ليلا بـ "جمل"، توفي زوجها في الحال، في حين نِقُلت هي إلى المستشفى. بعض الردود وكسر بالفخذ الأيسر تطلب عملية بسيطة والبقاء في المستشفى لعدة أيام قبل أن تعود لبيتها. أثَّر الحادث فيها كثيرا وزادها تقربا من الله، فنذرت نفسها للدعوة، وشغلت وقتها بالطاعات. تَم تصعيدها حتى أصبحت مسئولة عن أسرة دعوية، تلتقي بالنساء كل يوم اثنين بشكل دوري في بيت من بيوتهن وقد وزعت عليهن المنهج، إحداهن تختص بتفسير القرآن وأخرى بالسيرة وثالثة للرقائق ورابعة للدعوة بينما تختص إحداهن بتجميع الأخبار المتفرقة التي تهم الجماعة، ناهيك عن مواد أخرى مخصصة للدراسة بشكل متناوب مع هذه المواد. ثمة كتب بعينها كانت مخصصة للتحضير حسب مستوى أفراد الأسرة وتصنيفهم في الجماعة، فكان للتفسير كتبا بعينها، وللسيرة كتب، وكل مادة لها كتبها الخاصة لشيوخ من الجماعة أو على وفاق معها. كانت موائدهم الدراسية لا تخلو من تفسير سيد قطب، في ظلال القرآن، ولا "فقه السنة" للسيد سابق ولا في "علوم القرآن" لمناع القطان، كما كانت مكتباتهم الإلكترونية لا تخلو من قصص الأنبياء لطارق سويدان، وأشرطة عمر عبد الكافي، وغيرهما .. وفي رمضان كان المنهج يوزع ورقيا يلتزم به الجميع، كانت تدير الأسرة بشكل محترف.. تبدأها بتسميع وجه القران المقرر حفظه، ثم المقرر من السيرة قبل أن تسمح بتناول

شيء من الطعام، وقد قررت أن يكون الطعام موحدا لدى الجميع، لا يتعدى صنفا واحدا من السندوتشات والعصير ثم الشاي. كانت تستشعر الفوارق المادية بين أفراد الأسرة الإخوانية، تشعر بحرج بعض الأخوات حين يذهبن في بيت من بيوت القادرات فُيَقَدَّمُ ما لذ وطاب بينما هن لا يستطعن، فيصبح الأمر مكلفا وشاقا عليهن، فقررت أن تكون الضيافة موحدة. وهن يتناولن الضيافة كن يخصصن وقتا لسماع أخبارهن، فتتحدث كل منهن عن أخبارها ومشاكلها، أفراحها وأحزانها.. وكن يدعون لها في الأحزان أن يفرج الله الكرب، ويقترحن حلولا ويسعون في تنفيذها، ويصعدن الأمر للمستويات الأعلى لتساهم في الحل إن تطلب الأمر. وكن يباركن الأفراح والنجاحات ويقدمن الهدايا، ويقمن معارض لأعمالهن اليدوية البسيطة والأطعمة والحلويات المنزلية التي تفنن في صنعها. كن يحددن يوما بعينه يتجمعن في أحد بيوت الإخوة، يتبارين ويعرضن منتجاتهن ويضعن على كل منتج سعره. كن يخصصن ريعه لزيادة الحصيلة المالية للأسرة لتتولى هي توزيع دخلها، تترك جزءا منها لصندوق الأسرة وآخر تورده إلى المستويات الأعلى وفق ما هو مقرر. أكثر مشاكلهن كانت تتعلق بأمراض النساء والأطفال، كان يُتَّفَق مع أطباء الأطفال وطبيبات النساء من أعضاء الجماعة على توقيتات بعينها، يتم الكشف عليهن وعمل الإشاعات اللازمة مجانا أو بأسعار رمزية إذا دعت الحاجة. كانت الخَدَمات المقدمة دافعا للكثيرين بالتمسك بالجماعة. بعض عضوات الأسرة كن يضقن ذرعا بجديتها وواجباتها الكثيرة وكأنهن في مدرسة، الورد القرآني لا تهاون في حفظه مهما كانت الأعذار، كن يشتكين على استحياءٍ ضيق الوقت ويطلبن التخفيف، غير أنها كانت تصر على إكمال المنهج وكأنها يجب أن تقدم التقرير وتعطي التمام أن كل شئ تم وفق المخطط له. كن يتبرمن في غير وجودها كتلميذات تتبرم من مدرسة متسلطة، لكن أمامها كن يبتسمن وينصتن. كانت لا تكل الدعوة، شدتها التي عرفت بها ربما أحجب عنها فرصا أخرى للزواج. توطدت علاقة أبوها بإبراهيم البطران في أعقاب عمله معه، إلى أن عرض المعلم أحمد ابنته عليه من باب اخطب لبنتك، قالها له بعد أن أثنى عليه ودعاه للتفكير ملياّ. وكان قد سمح لها بالجلوس لوقت محدود معهم ليمكن إبراهيم من رؤيتها.. لم يتطلب الأمر من إبراهيم وقتا كبيرا للتفكير، لقد رأي في نبيلة فرصة، فهي وإن كانت تكبره بسنوات سبع إلا أنها جميلة، بيضاء البشرة،واسعة العينين، ناهيك عن كونها مهندسة. لم يقلقه فارق المؤهل بينهما، هي مهندسة وهو راسب ثانوية أزهرية. لا مجال لتلك الفوارق في الجماعة، هو نفسه يعرف أستاذة جامعية ارتبطت بأخ خريج دبلوم تجارة، كما لم يقلقه أمر " الإنجاب" ولا يدري وقتها لِمَاذا لَم يتوقف عنده كثيرا، ما أقلقه حينذاك أنها جادة أكثر من اللازم في حين أنه يعشق المرح، يعشق الحياة.. في صراع العقل والقلب، الغلبة على الأرجح للعقل.. المميزات العديدة لارتباطه بها طردت كل قلق ساوره، حَسِم أمره وراح يحصد ثمرات هذا الزواج مكانة ومالا، وضع حدا لعشرين عاما من الغربة عندما مالت الكفة لصالح التيار الإسلامي.عقب الثورة نزل إلى مصر مع كثير ممن نزل منهم.كانت التعليمات لعناصر الجماعة بدعم الدولة

والاستثمار فيها، فكانت هوجة النزول الجماعي عقب الثورة. اشترى محلا للملابس الجاهزة . وكان قد عمل في هذا المحل لبعض الوقت قبل سفره . وظل على دعمه للجماعة، غير أن الظروف تحولت والأمور تبدلت والكفة الآن باتت تميل في صالح الدولة. هو دائما وأبدا مع الكفة الغالبة. راح يلوم علنا سلوك الجماعة وفشلها واستعداءها للشعب، بدأ يمتنع عن حضور جلساتهم ويتهرب من دعمهم ويعلو صوته في مديح السيسي ويتحدث عن شرعية الغلبة. الأمر الذي لم يرق للجماعة ووضعه في مرمى غضبهم..

(١٥)

في عيادة خاصة في حي شعبي في مدينة المنصورة ترقد ناهد في حالة وهن وإلى جوارها تجلس أمها وأخوها، وغير بعيد يجلس الحاج إبراهيم. عندما توصلت اللجنة إلى قرار الخلع اتضح أن ناهد حامل، الأمر الذي أدى إلى تأجيل الخلع إلى ما بعد الولادة، ولربما أنصلح الحال وعاد الزوجين إلى بعضهما كما قال إمام المسجد. إلا أن ناهد يبدو أنها كانت قد حسمت أمرها، أرادت أن تكون خفيفة، قررت التخلص من الجنين، حاولت مرارا أن تجهض نفسها، غير أن محاولتها لم تفلح.. كانت ناهد قد وضعت عينيها على الحاج إبراهيم البطران بعد أن رمت طوبة سعيد وأسست لعلاقة مستقبلية مع الحاج شعرت فيها بنفسها. أخبرت الحاج يوما عن رغبتها في التخلص من الجنين، راقت له الفكرة بعد قليل من التفكير. هو الآخر يريدها خفيفة، بلا أولاد. رتب الأمر واتفق سريعا مع دكتور قذر في مستشفى خاص، أعطاه مبلغا من المال. كل شئ بدا طبيعيا.. ادعت التعب فجأة واصطحبها الحاج في سيارته إلى هذه المستشفى، وبعد أن اطمأن الحاج لتمام العملية اتصل بأهلها الذين تسارعوا إلى المستشفي.. يوم واحد قضته ناهد في المستشفى قبل أن تعود إلى بيت أبيها. محاولات البعض لرأب الصدع مع سعيد لم تفلح، فقد اتخذت قرارها، بل أنها طلبت التعجيل به، لم يعد هنالك حاجة للتأجيل أكثر من ذلك. انصاع الجميع لرغبتها. تم الخلع حسب ما اتفق عليه، وأصبحت ناهد حرة، طليقة، حملت لقب مطلقة. في حين راحت الحاجة تفيده على عجل تبحث لسعيد عن زوجة أخرى. هذه المرة كانت تريدها زوجة بنت أصول .كما كانت تردد . هذه المرة لم يكن الجمال محركها الأساسي وإنما كانت تريدها طيبة، مطيعة، منكسرة " يقدروا عليها ". كثفت تفيده اتصالاتها واستعجلت النتائج، فالجرح لن يلتئم و الإهانة لن تمحو إلا بسرعة زواج سعيد من جديد..

(١٦)

الشمس تطرق نافذتها برفق، تزيح الستارة جانبا لتسمح للضوء بالتسلل إلى غرفتها الصغيرة التي تقضي فيها معظم فترات اليوم، تفتح النافذة قليلا، ألقت نظرة سريعة إلى ذلك الملاك الراقد إلى جوارها، طبعت قبلة حانية على جبين محمد. سحبت نفسها في تكاسل و اتجهت صوب المطبخ،كعادتها، كل شئ كان مرتبا، هي لا تستعمل الكثير من الأواني، رغبتها في تناول الطعام قد تراجعت كثيرا، كما أنها لا تريد أن تبذل جهدا إضافيا في تنظيف تلك الأواني. فتحت الثلاجة وأخرجت قطعة جبن "قريش"، وأخرجت خبزا من الفريزر واتجهت صوب غرفتها، تحاول أن تبتلع لقيمان يقمن صلبها، غير أن اللقيمات تأبى إلا أن تتوقف في حلقها، تسارع إلى كأس ماء وتعاود الكرة، تتسمر يدها بالطعام كما كل جسدها، تعود وتتذكر كيف وافقت على الزواج منه.. في خلوة مدرسية جمعتها بها بعيدا عن الأسماع أخبرتها أميرة عن عريس يريد الارتباط بها، ويريد أن يعرف رأيها قبل أن يتقدم رسميا..

وقع الخبر عليها كالصاعقة، تهمس لنفسها " بعد هذا العمر يا ربي!!".. تلك الأقدار دائما تفاجئنا بما يدهشنا

– مسألتنيش مين؟

– مين؟

– سعيد الأحمدي..

– سعيد بتاعنا.. اللي كان متجوز ناهد؟

– هو بعينه.

– توارت الفرحة قليلا.. لكن يا أميرة، أأأ..

– ولا لكن ولا حاجة، أنا عارفه الظروف، فكري وشاوري وردي علي، هو صحيح يقرب لي من بعيد، وأمه وسَّطتني، لكن انت اللي تهميني.. انت عارفه كل حاجة عنه، خذي وقتك وشاوري وردي علّي بسرعة، أصل الجماعة مستعجلين، وزي ما انت عارفه الشقة مفروشة جاهزة وهو عايزك بشنطة هدومك.. ويا ستي جربي، واللي تخافي منه ما يجيش احسن منه، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم..

كان وقع كلمات أميرة دافعا لسعاد للقبول، غير أنها قررت أن تأخذ وقتا للتشاور. لم يختلف رأي الحاجة عن رأي أميرة، وقالت " عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم " وبصوت نهشه المرض" محدش عارف الخير فين يا بنتي وأنا نفسي اطمئن عليك قبل ما اموت."

– بعيد الشر عليك يا ماما..

– خوضي التجربة انت مش خسرانه حاجة، عيشي حياتك واستمتعي بها، قاسيت كثير وانت ساكتة وصابرة، لعمرك اشتكيت ولا عمرك قولتي اشمعنا انا.. ان شاء الله ربنا هيكرمك. اتوكلي على الله.

– بس ازاي وحسين في السجن..أنا مقدرش يا ماما.. مقدرش..طب يستنوا حتى لما يطلع!

تدخلت " سارة ": اخوكِ هيفرحلك قوي، اتوكلي على الله، وبعدين احنا مش عارفين هو هيطلع امته، والفرص مبتستناش..

– مش هوافق الا اذا " حسين" وافق.

– يا ستي انا هجيبلك الموافقة دي، واعتبريه موافق خلاص. قالتها سارة وهي تلوح بيدها كمن فاض به الكيل.

اطمأن قلبها للقبول، هي ذاتها تريد أن تشعر أنها أنثى، تريد ذرية يكونوا عونا لها عندما يتقدم بها العمر، تريد أن تدخل البسمة على أمها القعيدة طريحة الفراش.. تريد أن تكون زوجة وتقص حكاوي المتزوجات، تريد قبلة كتلك التي حدثتها عنها " أميرة "، تريد حضنا دافئا، وأياد تعتصرها، تذيبها، تحتويها.. تشعرها بأنها لازالت على قيد الحياة..

أنفقت "تفيده " على الفرح كثيرا نكاية في ناهد، أحضرت راقصات وفرقة غنائية من المنصورة رغم اعتراض سعاد بشده. "مش كفاية هتجوز واخويا في السجن كمان هنجيب رقاصات!" " قالتها سعاد معترضة قبل أن ترضخ أمام إصرار تفيده وعدم ممانعة أمها وكلمات سارة" مش هنفركش الفرح عشان رقاصة تيجي ولا متجيش"..كان التعب قد بدا على الوجوه بعد أن امتدت السهرة إلى ساعة متأخرة من الليل. انفض العرس واصطحب العريس عروسه.. كانت تمنى نفسها بليلة العمر، تلك الليلة التي ستحتفظ بها في ذاكرتها وربما حدثت بها في يوم من الأيام. حديث الزميلات وخيالها نسج لها ليلة مشبعة بالعاطفة والمشاعر المتأججة. كانت في انتظار أن تروي صحرائها، في انتظار نهر متدفق من المودة وفيضان من الرحمة، وطوفان من المشاعر، غير أن سعيد لم يكن أكثر من حيوان أخذ

شهوته وانقلب نائما. أما هي وبعد أن رأت ما رأت فكان ما يشغلها أشياء أخرى لازال يتمسك بها القرويون، شهادة العذرية، وهل لها من شئ غير الشرف؟.

(١٧)

توقف عند الملوحة التي نهشت جدران محبسه الضيق وزحفت عشوائيا لأعلى باتجاه السقف، ارتفع ببصره ليشاهد تلك الأسماء والتواريخ المتزاحمة، هي مؤكد لمظاليم تركت ملوحة دموعهم أثرها في تلك الجدران الناشعة، تساءل في نفسه عن سر تدوين الأسماء والتواريخ، أهي تأريخ لدخولهم، أم إحصاء للأيام المتبقية لهم في السجن أم إحصاء للأيام المتبقية لهم في الحياة؟ ولماذا لا يتم طمسها من قبل إدارة السجن، أهو عدم وجود وقت كافٍ أم اقتصاد في النفقات، أم أن الأمر مقصود للإمعان في الترهيب المفضي إلى ما يتطلعون إليه من اعترافات؟، الترهيب سياسة تجبر المتهم في نهاية المطاف على التوقيع على ما يريدون له أن يقوله، لا إراديا طاف بعينيه بحثا عما يكتب به، اصطدمت عيناه ببقايا قلم رصاص، سارع وأمسك به وراح يخط هو الآخر اسمه وتاريخ دخوله السجن، هو يحفظ جيدا هذا التاريخ، بل أنه يحفظ ساعة دخوله، كان ذلك يوم الثلاثاء الموافق ٢٣ /٠٧/٢٠١٣، كان وقتها يتأهب لصلاة الفجر عندما داهمت منزله قوة أمنية بلباس مدني، وانتزعته من بين أسرته وعاثت، وأخرجت باطن البيت، واحتفظت بما احتفظت به من أوراق قبل أن يصطحبوه إلى المعتقل وسط ذهول أسرته..

حين هم بتسجيل اسمه وتاريخ دخوله، لم يكن يعلم هو الآخر أهو للتأريخ أم لحصر أيامه بالمعتقل أو حتى لحصر أيامه المتبقية في الحياة، كل ما كان يعلمه أن عليه أن يشارك الآخرين أسماءهم ودموعهم وهو الذي شاركهم الألم والعذاب، كان يريد أن يقول أنا أيضا مررت من هنا.. المدهش أنه حين وصل إلى ذروة التحمل، إلى ذلك الخط الفاصل بين القدرة على التحمل والانهيار، حين شارف على الاعتراف بما لم يفعله، حين قرر أن يوقع لهم على ما يَشَاءُونَ، لم يطلبوا منه هذا الاعتراف بل على العكس، لقوه من محبسه الانفرادي، ولم يَعُد يُستجوب، لم يكن لديه تفسير لهذا التغير المفاجئ، لكنه في كل الأحوال كان في انتظار قادم مجهول..

(١٨)

كانت صدمة قاسية عليه، لم يكن من بين شروط زواجه العرفي منها أن تنجب له، تمالك نفسه وسيطر على بركان الغضب بداخله، كان يعصر كفي يديه وكأنما يتوعد شخصا ما حين قال في حزم:

– لازم تشوفيلك صرفه في المصيبة دي.. لازم تنزلي اللي في بطنك..

– ما اقدرش.. مستحيل..

– المستحيل إني اقبل بده.. انت اخليتي بالاتفاق اللي بنا، وانا معنديش هزار في الموضوع ده ومش هتكلم فيه ثاني.. لازم اللي في بطنك دا ينزل..

– دا حلم حياتي أن يكون لي عيل منك، ليه مستكتر علّي الحلم ده؟

– معدش عندي مرارة ووقت اضيعه معاكي في الكلام الفارغ ده.. اللي في بطنك ده مش مني، وأنا مش معترف بيه، وشوفي انت جيباه منين وبتتبلي ع الناس الشرفا..

– عيب الكلام دا يا حاج.. وإذا كنت كبير فربنا اكبر، وان كنت بتستقوا فربك أقوى..

اقتطع ضحكة ساخرة أطلقها ليقول:

– دي الوقت افتكرتي ربنا.. وبلهجة آمرة:

– ده اللي عندي، واللي في بطنك ان منزلش لا اعرفك ولا تعرفيني.. وورقة الجواز هقطعها.. قلتي ايه؟

– دا حرام والله.. نفسي يكون لي عيل منك، متحرمنيش من الحلم ده..

– احلمي بعيد عني يا شاطرة، وفرحتك مش لازم تكون على حسابي، لميتك و صرفت عليك وعملت منك بني أدمه و جايه دي الوقتي تتنطي علي! مش هينفع يا حبيبتي.. الأمر عندي محسوم..

– يعني دا رأيك النهائي يا حاج ؟

– أيوه..

– طب أنا مش هانزله والأرزاق على الله..

استفزه عنادها، انهال عليها ضربا ولعناته تتطاير في كل اتجاه بأقذر السباب، ثم جرها من شعرها وطرحها خارج الشقة، وصك الباب..

كالتائهة، نزلت إلى الشوارع تصارع الانهيار. الليل كان قد أرخى سدوله والمدينة التي كانت حلمها يوما تخلت عن دفئها رغم حرارة الجو التي لم تنكسر.. ازدحام وحركة، حياة مادية، وقلوب لم يعد بها مساحات للحب. اسودت الدنيا في وجهها، ماذا عساها تفعل؟ أين تذهب الآن ؟ ساعات متبقية عن موعد عودتها لقريتها. ماذا ستقول لأهلها: أنا متزوجة عرفي وحامل؟! يادي المصيبة!! طب هقول لهم جوزي مين؟ مين أبو اللي في بطني؟! وليه اخفت الخبر، وهنقول ايه للناس؟ كلام الناس هيتأكد وتفيده واللي زيها هيشمتوا فينا..

أسئلة كثيرة تضرب رأسها بعنف تعجزها عن إيجاد إجابات منطقية. استسلمت لأحزانها وعادت إلى قريتها منكسرة، باردة، شاردة، جسد يتحرك بلا وعي، ألقت بجسدها على السرير ودفنت وجهها بين كفيها وانفجرت باكية.

(١٩)

كانت"نبيلة" تحته ككتلة مصمتة من اللحم، لا نفس ولا حركة، كان يأمل أن تتفاعل معه، يَمُني نفسه لو يسمع صراخها أو تؤووها أو حتى أنفاسها، غير أنه لم يكن يسمع سوى الصمت، كتلة من الجليد تحفظ مشاعره دون التلف و تجمدها بأعماقه إلى أن تعود للحياة من جديد في مكان آخر على يد أخريات أكثر دفئا..كان في قرارة نفسه يحملها وزر ما يقترفه من آثام، هي التي دفعته لذلك، مرارا حاول معها، حدثها، لفت انتباهها.كان حريصا على ألا يجرح مشاعرها، غير أن قناعاتها دائما كانت تنتصر.. في بيت الزوجية هي في محراب عبادة. أعمالها كلها عبادات كما كانت تردد، وتلك العلاقة هي الأخرى عبادة كالصوم والصلاة، لكنها غفلت أن كثيرا من الصائمين لا يجنون من صومهم غير الجوع والعطش، وكثيرا من المصليين لا يستفيدون منها لأنهم لم يعوا منها شيئا، وهي لم تع شيئا من تلك العلاقة، وكما البعض يؤدي الصلاة حركات دون أن يمس قلبه منها شيئا أو يعي حكمتها كانت تمارس هذه العلاقة مجرد واجب وتؤديه.كان أكثر ما يؤذيه أن تؤدي تلك العبادة وقت مرضها..كان يتمنع إشفاقا عليها ولأنه لا حاجة له بعلاقة باردة ولا حاجة له بإحساس إضافي بالذنب، لكنه كان يستجيب أمام إصرارها ويفرغ طاقته كما البرق، فتشعر بالرضا بعد أن ضحت و أدت المهمة بنجاح حتى في مرضها. كان يشفق عليها في كثير من الأحيان، لكن مع كل علاقة آثمة أو حتى نظرة جائعة كان يحملها وزرها، فهي التي دفعته لذلك.. إنه لا يذكر مرة أنها وضعت ماكياجا وتزينت له كباقي النساء، بل أنها لم تكن تقتني أدوات الزينة من الأساس. في بداية حياتهما الزوجية اشترى لها بعضا من تلك الأدوات، غير أنها كانت تجف حزنا من الإهمال، فيشتري لها أخرى لتواجه ذات المصير، كان يتعجب من سيدة لا تستخدم أدوات التجميل، بل لا تعرف كيف تتجمل!، َملَّ، واجتاحه شعور باليأس، قرر أن يتعامل معها بذات الأسلوبواجب ويُؤَدى". مرات سأل نفسه: ألا تشعر برغبة حقيقية في تلك العلاقة؟ أليست في حاجة إلى الاستمتاع بدلا من هذه التضحية التي تشعره بالذنب؟ لم يأته الإحساس يوما أنها تحبه، وهو قطعا لا يهيم عشقا فيها، لكن الاستمتاع بتلك العلاقة الغريزية قد لا يتطلب الحب. تجرأ مرة وألمح لها، فقالت" المهم انت يا حاج"، أنا هنا عشانك، لا تشغل بالك بي، سَكَت، ولم يعد يهتم..

(٢٠)

ولأن الطبع يغلب التطبع فقد عادت تفيده لطبيعتها، لم يكد يمر أسبوع حتى تتشاجر مع سعاد لأتفه الأسباب. كانت دائما تقارن بينها وبين ناهد.. ناهد عادت لعملها بعد أيام قليلة، أما انت كسولة. في الظهيرة تذهب لتستريح، توبخها بصوت عالٍ "انت هتقضي اليوم كله في النوم"، أشياء كثيرة كانت مصدرا للشجار، من النوم والغسيل والمطبخ والكهربا اللي مفتوحة عمال على بطال، والميه اللي هتبوظ الجدران.. يبدو أنها أرادت أن تذبح القطة لسعاد كما يقولون من أول يوم. أرادت أن تريها العين الحمراء. شخصية سعاد المنكسرة ساهمت في تفاقم الأمر، لكن المشكلة الأكبر هي الإنجاب، كانت تريد أن يكون لسعيد أبناء كثر. من أول يوم وهي تحدثها عن الخلفة، تقارن بينها وبين ناهد التي حملت من أول يوم، كان هذا الأمر أقسى ما يزعجها ويضغط على أعصابها. بعد إلحاح من تفيده ذهبت وحدها لطبيبة النساء التي ابتسمت وقالت:

– لم يمر على زواجك شهرين، هدئي من روعك، العامل النفس مهم، الطمأنينة مهمة.. لا تشغلي بالك الآن بالإنجاب، هو سيأتي وحده، فقط استمتعي بحياتك..

لكن يا دكتورة العمر بيجري، وأخشى أن تقل فرصي في الإنجاب..

– اتركي الأمر لله.. انت كويسه، لكن ابعدي عن أي مشاكل و أي ضغوط، إن استمر الأمر محتاجين نشوفك تاني ونشوف زوجك كمان..

خرجت لا تدري ماذا تقول لـ " تفيده"، تعلم أنها منتظرة، متربصة.. لكنها اعتادت الصدق، سوف تقول لها ما قالته الطبيبة " لا زال الأمر مبكرا "، قالت لنفسها، غير أنهاجُهت بسخرية لاذعة حين ذكرت ذلك لتفيده.. دائما تذكرها أن ناهد حملت من أول يوم، دائما تضعها في مقارنة مع ناهد، وحين ترد أن الخلفة بيدي الله، وأن زواجهما لم يمر عليه شهران، تواجه برد قاسٍ، فتنفجر باكية، وتسرع إلى غرفتها، دون أن تنصت إلى وصلة تفيده وحركة فمها يمنة ويسرة، متحسرة على قسمة ونصيب سعيد..

(٢١)

على ثورته وصوته المرتفع تجمهر البعض عند مدخل محل الحاج إبراهيم البطران، كان الحاج قد تخلى عن هدوءه المعتاد ونحى هيبته ووقاره جانبا وبدا في قمة غضبه عندما همست له أنها ستذهب إلى الحاجة، في تهديد صريح..كانت ناهد قد تغيبت عدة أيام عن العمل وبررت ذلك لأهلها بأنها في أجازة، كانت تفكر في تلك المصيبة التي حلت بها، اتصلت به مرارا، كان دائما يغلق الهاتف في وجهها. عندما اتصلت به من رقم أخر تنكر لها وأغلق أيضا الهاتف سريعا في وجهها. بل أنها علمت من سوسن أنه جاء بموظفة أخرى شابة.. هو دائما هكذا، لا يضيع وقتا.. عليها إذن أن تتصرف بمفردها، عليها أن تختار بين أن تصمد وتحتفظ بالجنين حتى ولو كان على حساب سمعتها وتجاهد من أجل إثبات نسبه مع كل ما يصاحبه من عار لها ولأسرتها وحتى للجنين نفسه، أو أن تتخلص منه. خياران كلاهما مر. لكنها لا تقوى على الفضيحة لها ولأسرتها وللجنين.. سيعيش في عار أمه، وسيلعنها مع كل لحظة إذلال وانكسار يتعرض لها. تذكرت ورقة أخيرة لم تستخدمها بعد، ماذا لو أدخلت الحاجة نبيلة في المعادلة؟ مجرد إيماءة له ربما تردعه، لديها الكثير مما يمكن أن تُحدِّثها به..ليس فقط عن علاقته بها وحملها ولكن ستحدثها عن كراهيته لها وما كان يقصه عنها وعن الجماعة وأسرار أخرى كان يهذي بها في لحظات خدر جمعته بها.. حين أرادت تنفيذ خطتها وبمجرد أن صرحت له أنها ستخبر الحاجة، خرج عن وقاره وبصوت عالٍ حاسم: انا مبتهددش.. والله عال.. جا اليوم اللي واحده زيك تهددني!! امشي اطلعي بره وأعلى ما في خيلك اركبيه.. جذبها من ذرعها ودفع بها خارج المحل وهو يصيح فيها: انا مبشغلش هنا غير المحترمات، مش عايز اشوف وشك ثاني، ولو شفتك هنا هاقطع رجلك.. ثم نهر الحضور وهو يشوح بيديه لهم بالانصراف.. سيرك هو يا خوانا والا ايه؟! كل واحد يروح يشوف مصلحته بدون مطرود، ودلف للداخل وهو يوصي ويحذر ويهدد كل من يسمح لها بالدخول أو يبقي على صلاته معها..

(٢٢)

في عيادة صغيرة بالطابق العاشر في برج سكني مطل على ميدان أم كلثوم ومن خلف مكتب صغير مدت الدكتورة يدها والتقطت التحاليل.. نظرت سريعا إلى عيني سعيد المُترَقبتين قبل أن تفتح المظروف.. سكتت للحظات قبل أن تتحدث بهدوء..

– شوف يا أستاذ سعيد.. الخلفة دي بتاع ربنا، محدش له دخل فيها، يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما.. للأسف الشديد يا أستاذ سعيد أنت مش هتقدر تخلف.. بعد التحاليل الموضوع محسوم، والتحاليل بتأكد أن عندك حاجة بنسميها في الطب متلازمة " كلاينفلتر " المصاب بها جسمه مبيقدرش ينتج الكمية الكافية من هرمون الذكورة " التستوستيرون ".. دا أمر الله.. ومفيش مفر من قضاء الله، لازم نرضى ونعيش حياتنا، مش لازم الموضوع دا يأثر على حياتكم، عيشوا حياتكم واستمتعوا بيها، ياما ناس عندها ولاد ومطلعين عينيهم.. ويمكن الأيام اللي جاية يكتشفوا علاج، الطب دائما في تطور مستمر.. ربنا يسعدكم..

حالة من الذهول أصابت سعيد، حين خرج راح يحدث نفسه كالمجنون: طب ازاي؟! لم يشغله أن يكون له أولاد من عدمه، ما كان يشغله :كيف حملت ناهد، وممن؟.. أطرق برأسه يكابد الدموع. أشفقت عليه وهو الذي رق قلبه لحالها حين رحلت أمها مؤخرا، عندما عصف بها الحزن وترك بصمته عليها، أشفق عليها وأراد أن يُخرجها من أحزانها. وافق أن يذهب معها إلى الطبيبة، بل ووافق أيضا على عمل التحاليل التي طلبتها.. هي تعلم صعوبة الأمر لرجل شرقي، ما بالك بقروي منغلق!!. كانت تعلم أن مجرد الطلب بزيارة الطبيبة لأمر كهذا هو طعن في رجولته، لكنه من أجلها فعل. يجب أن تقف إلى جواره" حدثت نفسها قبل أن تميل نحوه بتأثر:

– بالراحة على نفسك يا خويا لاصلح يجرالك حاجة، أكيد فيه حاجة غلط.. نروح نشوف حد ثاني ونعمل تحاليل ثانية بس بلاش تعمل في نفسك كده، طب دا حتى حرام عليك نفسك وصحتك.. احنا راضيين بكل اللي يجيبوا ربنا..

– لا ثاني ولا ثالث ولا عدت رايح ولا جاي.. وكأنما تنبه لشيء ما، اتجه برأسه نحوها والدموع تغالبه شاهرا السبابة باتجاهها، سعاد: الموضوع ده مش لازم حد ياخد بيه خبر.. ثم استجمع قدرا من الشجاعة وبتلعثم "وانت يا بنت الحلال لو عايزة تطلقي..

تقاطعه سريعا:

– مطلعهاش من بقك سايئة عليك النبي، يا سعيد انا معاك ع الحلوة والمرة لما كنت بزعل واروح اشكي لامي الله يرحمها كانت تقولي روحي بيت جوزك، معندناش بنات تطلق..

عاد منكسرا تُعانق عيناه الأرضَ، صامتا، مثقلا ومكبلا بجبال من الهم، دخل غرفته دون أن يلقي سلاما معتادا على أمه، التي بادرتهم بتهكم:

طب قولوا دستور، قولوا سالخير، لم يجيبها أحد، دلفت سعاد خلفه، ألقى بجسده على السرير، أطفأت النور. خرجت في محاولة لإيقاف الضجيج الذي تحدثه " تفيده " والتي تعلم أنه سيتوقف حتما بمجرد أن تبتعد عن سعيد، اجتماعهما في غرفة مغلقة يسبب لها حساسية مفرطة، تدفعها الغيرة إلى افتعال الشجار، تلقت بعض النقار المعتاد، لم تلتفت. اتجهت صوب المطبخ حيث غسيل الأطباق وتحضير العشاء..

(٢٣)

على أنغام الطبول ورقص الفتيات تجلس العروسة إلى جوار العريس في الكوشة التي أعدت خصيصا خارج البيت، حبال الأنوار الملونة تزين المكان.. ،حول العروسين يلتف النسوة ومن خلفهن يقف بعض الصبية يتفرجون. وقفت ناهد تشاهد العروسة كباقي الفتيات عندما شعرت بأحد الصبية يحتك بها، ولما لم تبد تبرما كرر فعلته، تركته ولم تهتم. حين خافت أن تعاقبها أمها على التأخير غادرت. في طريق العودة باغتها ذات الصبي في مدخل شارع فرعي مظلم، كانت مستسلمة من هول المفاجأة حين أمطرها بوابل من القبلات قبل أن يفر هاربا.. منذ ذلك الحين شعرت أنها صارت أنثى، وأنها باتت مرغوبة وهدفا للآخرين.. بدأت تفهم شيئا فشيئا العلاقة بين الرجل والمرأة لاسيما بعد أن برزا نهديها وأصابها علامات البلوغ.. باتت في مرمى معاكسات الشباب. رق قلبها لشاب جامعي كان قد تخرج لتوه ولم يعثر بعد على فرصة عمل. نشأت علاقة حب بينهما. كانت قد اعتادت عليه، ينتظرها في طريق عودتها من مدرسة التجارة. توفيرا للنفقات كانت تعود سيرا على الأقدام مع بعض الزميلات. حين تلمحه تتأخر عنهن، تتعلق بذراعه، يتبادلان الحديث عن الحب والمستقبل، يتغزل في عينيها الواسعتين، قد يختفيا قليلا خلف شجرة، يختطفا قبلات عابرة وعيناهما على الطريق..

في مجتمع قروي لا يمكن لعلاقة كهذه أن تتوارى كثيرا، ثمة عيون تَرى ولا تُرى، وأذان تسمع وألسنة تهمس، وكلمات تتناثر وتنتشر لتصل إلى أسرتها التي تشكو الشاب فيعنفه والده حد الإهانة، لينقطع عنها، ثم لم تره من يومها..

تخرجت من المدرسة وراحت تبحث لها عن عمل، وفي كل مرة كانت هدفا لصاحب العمل. الشارع دائما كان مصيرها عندما تتمنع، جربت ذلك مرتين. هذه المرة لم تتمنع وتركت نفسها للحاج يعربد بجسدها كيف يشاء، غير أن مصيرها أيضا كان إلى الشارع.. لم تحمها تلك الورقة التي استطاعت أن تحصل عليها في ليلة خاصة وفي ساعة خاصة انتقتها بعناية بعد أن تدفق الدم في عروقه واشتعلت النيران بداخله وهاج الأسد الذي يقطنه. خر راكعا يلعق قدميها، أقنعته بدلال أن يكتب ورقة زواج عرفي، ولتطمئنه أكثر جعلتها معه ثقة فيه كما قالت، وبررت له بكلمات معدودة " لجل الحلال يا حاج " كتبها سريعا وألقى بها جانبا وغرق في بحر هائج وسط فيضان من المشاعر المتلاطمة. كانت تظن أنها تمكنت منه، أنه أدمنها، ولا يمكن له الاستغناء عنها، فراحت فكرة " الإنجاب " تراودها. صحيح أنه اشترط عليها عدم الإنجاب، إلا أنها تعلم جيدا حبه للأولاد،وتعلم أن الحاجة نبيلة لن تستطيع الإنجاب، وأن مصالحه معها تمنعه من البحث عن الخلفة بزيجة أخرى، لأنه لو فعل لخسر كثيرا..قص لها يوما كيف أنهم يقولون ما لا يفعلون، وحكى لها أن دكتورا إخوانيا مُسِنا يتقلد منصبا مهما في مستوصفٍ بالسعودية

أعجبته ممرضة فلبينية شابة باذخة الجمال،كانت تعمل في نفس المستشفى التي يعمل بها، دخلت في الإسلام عن طريقه، انتهى عقدها مع المستشفى، فاقنع زوجته الدكتورة أن يتزوجها عليها، حدثها بلطف أن الأمر ليس نزوة ولا ولعا بالنساء، إنما هي لله، لو تركناها تعود إلى بلادها وقومها لعادت عن الإسلام، لابد أن نحافظ عليها، هي رسالة نؤديها، هي دعوة إلى الله، هي في سبيل الله، ونصرة لدين الله وطمعا فيما عند الله يوم نلقاه..وقرأ قوله تعالى: " قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين.. الآية " وافقت الدكتورة على مضض، فحياتها وأعمالها كلها لله، بل وداست على قلبها وجعلت نفسها خادمة لهما، لكنها لم تستطع أن تستمر في ذلك أكثر من شهر وهي تراه يتجرع متعة ويعود شبابا وحين يعود لها يتغير وجهه ويرتدي قناع البؤس والشيخوخة، فانتفضت غِيرة، وخيرته بينهما، هي وأولاده في كفه وتلك الفلبينية في كفة أخرى، لم تفكر وقتها في الدعوة ولا الإسلام، وكما انتصر لرغبته بهذا الزواج انتصرت هي لنفسها كامرأة. لعل خوف الحاج من ردة فعل نبيلة تمنعه من البحث عن الخلفة بالزواج بأخرى، فلماذا لا تضعه هي أمام الأمر الواقع؟ مرات عدة استطاعت أن تطرد تلك الأفكار، غير أنها استسلمت لها يوما، وقررت أن تضعه أمام الأمر الواقع. كانت تقنع نفسها أن الولد سيزيد من الروابط بينهما. سيغضب قليلا لكنه حتما سيروق عاجلا غير أجل، بل أنه سيشكرها في نهاية المطاف أن جعلت له من يخلد اسمه ويكون سندا له في الدنيا..

كشريط سينما ظل شريط الذكريات يمر أمام عيني ناهد حين خرجت مطرودة، كانت لا تدري إلى أين تتجه، تجر قدميها بتثاقل شديد، تتخبط في المارة في هذا الشارع المتكدس بالبشر، لا تلتفت لنظرات البعض، عيناها معلقتان على شاشة كبيرة تعرض شريط حياتها..كانت لا تعي حركة الشارع ولا يعي من بالشارع حركتها التائهة، لتضربها سيارة مسرعة وهي تعبر الطريق، وتخلفها جثة هامدة..

(٢٤)

أعادوا استجواب حسين من جديد، لكن هذه المرة شعر أن الأمر مختلف، حتى المحقق بدا هادئا حين سأله:

– في اعتراف سابق قلت انك ذهبت إلى اعتصام رابعة، كيف كان يُسمح لك يا حسين بالدخول إن لم تكن منهم؟

لم يؤثر هدوء المحقق في حسين الذي احتفظ بجمود وجهه وهو يرد بامتعاض:

يافندم أنا من بادرت وقلت من تلقاء نفسي أنني كنت اذهب إلى اعتصام رابعة، وقلت أيضا أن ذلك كان لكشفهم، أنا أعلم حِيلَهم جيدا، كنت اكشف أكاذيبهم عن سلمية الاعتصام وأعرض صورا لنشاطاتهم، واحتلالهم للميدان، وإغلاق الطرق في وجه المواطنين، واستخدامهم الطرقات كحمامات، واستئجارهم البسطاء والجاليات العربية، وغيرها من المشاهد والفعاليات التي تنال منهم، وتوقفت عن الذهاب إلى الميدان حين اكتشفوا ذلك واخترقوا صفحتي ووضعوا عليها أسماء وعناوين ضباط الشرطة ضمن قوائم لشخصيات عسكرية ومدنية مستهدفة من قبلهم..

– إن كان الأمر كما تقول لماذا لم تتخذ اجراءً ما لإخلاء المسئولية، كأن تبلغ مثلا، أو تفتح صفحة بديلة وتنوه لذلك؟

– بالفعل فتحت صفحة أخرى لكن لم يسعفني الوقت لتدارك آثار الاختراق، لأنكم ببساطة لم تمهلوني، وألقيتم القبض علّي عقب الاختراق بيومين..

حين أمر المحقق بإعادته لمحبسه، كان حسين يستغرب صوت المحقق الرائق، وذلك الهدوء الذي اكتسى وجهه وتعبيراته، لم يحتد كعادته، ولم يشعل ولو سيجارة واحدة خلال الجلسة التي لم تدم طويلا..تغيرات عديدة يلمسها حسين دون أن يجد لها تفسيرا، لكنها تزيده يقينا أنه على شفا حدث ما..

(٢٥)

الحاج إبراهيم البطران رجل برجماتي تجده أينما وجدت المنفعة، ومنفعته الآن أصبحت مع الدولة ونظامها الجديد، وقد بدأ يمهد لذلك ويقترب تدريجيا من النظام الجديد بالقدر الذي يبتعد فيه عن الإخوان، بدأ يتحدث في جلساته مع المقربين سواء من الجماعة أو خارجها أو حتى في بيته عن شرعية القوة أو" إمامة المتغلب " في الإسلام، وأن النظام الجديد في مصر بات يمتلك الآن هذه الشرعية وعلينا أن نسمع ونطيع وحسابه على الله، وكثيرا ما كان يستشهد بقول الإمام أحمد" ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله أن يبيت ولا يراه إماما برا كان أو فاجرا".. لم تكن هذا الكلمات تجد ترحيبا من الجماعة، بل كانت تقابل بالريبة ومزيد من القلق، وصاحب ذلك دعوة الجماعة له بمزيد من العطاء نظرا لظروف الجماعة والحرب التي تشن عليها. رائحة مريبة كانت تزكم أنفه، وربط داخلي في نفسه بين زيادة وتيرة مطالبات الجماعة بمزيد من الدعم وبين تحوله التدريجي إلى المعسكر الآخر، كان يشعر أنها اختبارات ولاء متجددة، ورغم ذلك ظل يمتنع عن العطاء ويكتفي بالنسبة الشهرية المقررة، كان دائما ما يردد" مفيش " ويتذرع بأن الحال كما ترون" واقف"، كان من السهل على أيٍ ممن يعرف الحاج أن يكتشف هذا التحول.. زوجته هي الأخرى شعرت بهذا التحول وكانت تواجهه محذرة وبحده " كله إلا شرع الله يا حاج " فيضحك ساخرا وهو يستحضر صورتها في غرفة النوم وهي ترفض أن ترقص له على أنغام الموسيقى و تقول له " كله إلا شرع الله " في إشارة منها إلى تحريم الموسيقى. وعندما تسأله عن سبب ضحكه يرد باستغراب بعد أن تخلى عن كثير من تحفظه: هم دول اللي هيطبقوا شرع الله!! وكان الجدل يطول، والفجوة تتعمق لا سيما بعد أن اعتاد مديح السيسي بينما هي تلعنه وتصفه بالقاتل والخائن وقائمة طويلة من الموبقات. وفي ليلة بددت حرارة النقاش صفوها ارتفع صوتهما عاليا، راحت تستغرب تغير موقفه:

– مكنش دا رأيك، أيه اللي غيرك؟

– كنت غلطان، والاعتراف بالخطأ فضيلة.. يا رتهم يعترفوا هما كمان بغلطهم، كانت اتغيرت حاجات كثير قوي..

– غلط أيه اللي انت عايزهم يعترفوا بيه؟ يعترفوا بإنهم هما اللي حرقوا نفسهم بأديهم، يا راجل عيب عليك، قلبك موجعش وانت شايف جثث الناس وهي بتشوي؟! ربنا يحرق قلوبهم زي ما حرقوا قلوبنا..

– اللي حرق قلوبنا صحيح هما اللي خدعوا الشباب وثبتوهم في الميدان وهما عارفين أن الفض جاي جاي، وان الدولة مش ممكن هتسمح باستمرار الاعتصام، لا أنا ولا انت كنا هناك يومها، بس لعلمك أنا شفت فيديوهات كثير

كانت محجوبة عنا ومواقع كان محظور علينا نشوفها لأنها مصنفة على أنها معادية وأخبارها كاذبة ومفبركة، فيديوهات واضحة وضوح الشمس والمعتصمين بيحرقوا أغراضهم مع بداية الفض والنيران امتدت للخيام اللي كلها زي من انت عارفه وأنا عارف من مواد قابلة للاشتعال.. احنا بنشوف بس اللي هما عايزينا نشوفه، لو بنحاكم صح كنا حاكمنا اللي لعبوا بعقول الشباب، هما دول القتلة الحقيقيين..

– بقت لغتك هما وكأنك مش معانا؟

واستمر الجدل طويلا واتهمته في عقيدته بنصرته للقاتل، ودعت الله أن يحشره يوم القيامة مع هذا القاتل السفاح، ثم طلبت الطلاق..

لم ينزل الحاج إبراهيم على رغبتها رغم ترحيبه في قرارة نفسه بالطلاق. وإنما حافظ على شعرة معاوية،لقد عودته الحياة أن يترك بابا للرجعة، فلربما تبدلت الأحوال من جديد. سمح لها بمغادرة البيت.. لكن ضغوطا كبيرة مورست عليه لإتمام الطلاق، فانصاع ورضخ ظنا أنه يدرأ عنه غضب الجماعة.. إلا أنه لم يتوقع أن يأتيه الرد سريعا، فقد هاتفه عامله أن حريقا كبيرا قد شب في المحل ومحلات مجاورة، ورغم ما قيل عن أن ماسا كهربائيا كان وراء الحريق فقد كانت قناعته أنه بفعل فاعل وأنه غضب الجماعة عليه وتصفية حساب. وزاد من شكوكه أنه وجد نفسه بعد أيام خلف القضبان بتهمة الانتماء إلى جماعة محظورة ودعم وتمويل الإرهاب لاسيما اعتصامي رابعة والنهضة بناء على بلاغ من مجهول مصحوب بالمستندات وأوراق كانت في يد الجماعة لا غيرها..

وكانت الجماعة تتعمد أن تحتفظ بصور وفيديوهات وحتى مستندات كوسيلة ابتزاز قد تحتاج إليها وقتا ما، كانت تتعمد أن تسرب ذلك لأعضائها ولو على سبيل المزاح لتصل الرسالة التحذيرية.. تذكر صورا عديدة التقطت له مع رموز الجماعة والمسئول وقتئذ يقول مازحا " عشان محدش يقدر يتنصل من الانتماء للإخوان "، تلقى الرسالة ضاحكا كالآخرين ولم يع وقتها مضمون الرسالة وجدية التهديد..

الشهور التي قضاها حسين في المعتقل لم تكن فترة طويلة بمقاييس الزمن، لكنها كانت طويلة، بلا نهاية، ثقيلة كالجبال، بما واجهه، ترك السجن أثره فيه، فلم يعد ذلك المسالم، العاشق، المحب للطبيعة والحياة، لم يعد ينظر إلى ثنائيات الحياة كما كان، لم يعد يعتقد بالخير بعد أن طغى الشر، لم يعد يرى النور بعد أن ساد الظلام، تملكه اليأس بعد أن تسرب منه الأمل، حتى الموت والحياة لم يعد ير بينهما فرقا بعد أن صار حيا ميتا.. أصبح ناقما على كل شئ، حتى على ذاته، أصبح قلبه جامدا، لم تعد به مساحات للحب، فقط الغضب كان يشغله. هذا الغضب وعلى غير طبيعة الأشياء توارى لحظيا وبدلا من أن يتدفق الدم في عروقه ويزداد غضبا إلى غضبه وهو يرى ظالمه أمام عينيه في باحة السجن وعلى بعد خطوات منه، ظل ساكنا، يحدق به ولم يحرك شيئا، فقط قفز إلى ذهنه مواقفه المخزية معه، حدثه يوما أنهما مصريان، أنهما مُسْلِمان، لكن، كالعادة، انتصرت رابطة التنظيم، هم دائما ينتصرون لها، دائما يرددون:" رابطة الأخوة أكبر وأقوى حتى من رابطة الدم"، ورابطة الأخوة التي يقصدون هي رابطة التنظيم بعد أن اقتصروا الأخوة في الله في أعضاء التنظيم دون سواهم، بهذه المقولة أيضا كانوا يبررون غلظتهم تجاه أرحامهم انتصارا للتنظيم، كانوا يستشهدون بالآية الكريمة" لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم..الآية"،كانوا يقولون أن الصحابي أبو عبيدة الجراح انتصر للإخوة في الله وقتل أباه في غزوة بدر..

الدهشة التي تملكت إبراهيم البطران حين وقعت عيناه على حسين لم تمنعه أن يقترب منه على استحياء، عيناه المتعثرتان التي تتناوب بين الأرض وحسين طغى عليها الاستعطاف حين وقف في مواجهته، ارتبك كثيرا عندما لم تؤثر حرارة سلامه في برودة حسين، ظل حسين يحدق به عندما انحنت رأسه وهوت نظراته إلى الأرض وهو يعتذر:

. أنا آسف يا حسين؟ أنا عارف إنك واخد على خاطرك مني.. سامحني، ربنا انتقم لك ولغيرك مني..

حين ارتبط إبراهيم البطران بنبيلة، سعى والدها لأن يرتقي البطران سريعا وأن يأخذ مكانة لائقة به وبالمعلم أحمد وكريمته، ارتأى أنه من الأفضل أن ينقل كفالته على مؤسسة محترمة، سليمة الأوراق، مؤسسة سليمة الأوراق تعني أنها ذات تصنيفٍ جيد يَمُكّنها من الدخول في مناقصات كبيرة، ولم يجد أنسب من مؤسسة " البناء الحديث للمقاولات العامة "، فهي من ناحية مؤسسة سليمة الأوراق، ومن ناحية أخرى أشبه بمعقل للإخوان، معظم مهندسيها ومنسوبيها إخوان، التأشيرات الجديدة يأخذها الإخوان يتاجرون فيها إن لم يجدوا إخوانا يستقدموهم عليها، هكذا

فعل شعبان، التأشيرة التي جاء عليها حسين حصل عليها شعبان بسعر زهيد، أرسلها إلى أخيه في مصر وقد اعتاد الاتجار بالتأشيرات والذي باعها بدوره على"حسين".

حصل إبراهيم البطران الذي لم يتجاوز تعليمه الثانوية الأزهرية على مكانة مميزة في المؤسسة، وأضافت مكانة المعلم أحمد في الإخوان وفي سوق المقاولات إلى مكانته، فأصبح نافذا، مسموع الكلمة، محركا لسياساتها، كان يقال عنه أنه "روح المؤسسة "، حين اختلف حسين مع الجماعة وَهَمَّ بالخروج قبل أن تزل قدمه أكثر، وقفوا في طريقه بمضايقات كلها من ابتكار إبراهيم البطران، أخروا رواتبه، افتعلوا مشاكل في عمله وعلاقاته مع العمال وزملائه، حَمَّلوه غرامة تأخير إحدى مراحل المشروع الذي يشرف عليه رغم أنهم كانوا سبب التأخير عندما لم يمدوه بالعهدة اللازمة للإنفاق على العمل، ولم يكن ليصرف على المشروع من جيبه الخاص وهو الذي لا يملك شيئا، عندما هَمَّ أن يشتكي لمكتب العمل سمحوا له بالبحث عن كفيل آخر، غير أنهم ماطلوا في منحه جواز سفره والمستندات اللازمة لنقل الكفالة، بل وسعوا في إفشالها،ظن البطران أن حفلة عقد قران حسين والتي حصل من حسين على نسخة منها يمكن بما تحتويه من رقصٍ وأغانٍ أن تشوه صورة حسين لدى الكفيل الجديد وهو المعروف بتدينه، لكن الرجل لم يقتنع بمحاولات تشويه حسين، بل وأخبره بما كان منهم، غير أنه في ذات الوقت أعتذر له عن إتمام نقل الكفالة نظرا لحاجته السريعة إلى مهندس، وأن الجماعة على ما يبدوا لن يمكنوه من نقل الكفالة، وخشية من أفعالهم طلب حسين منهم خروجا نهائيا.. الآن يجلس البطران إلى جواره بينما هو مستكين لم تؤثر تلك المشاهد فيه ولم تثر غضبه، لم يكن هنالك تبرير لذلك، ربما القهر الذي يعيشه حال بينه وبين الغضب، فجلس ساكنا، ينصت للبطران وهو يقدح ويطعن في الإخوان..

كما الصمت، يلف الحزن المكان، ما أصعب أن يقف المرء عاجزا، مكتوف الأيدي، لا يستطيع أن يحرك ساكنا، فقط، يطلق الآهة، أو يذرف الدمع. ويستسلم لقدره.. تطالع وجه الصغير بتأثر حد البكاء، تتساءل: ترى ماذا يخبئ لك القدر؟ تعيد صياغة السؤال: بل، ماذا يخبئ لنا القدر؟

ترتفع ببصرها لأعلى، تخترق ببصرها سقف الغرفة، تناجي ربها بصوت يعرقله البكاء: يا الله، تعلم وحدك أنني لست امرأة قوية كما يعتقدون، وحدك يا ربي تعلم كم أنا امرأة ضعيفة، هشة، مرات سمعتهم يقولون أن امرأة تستطيع أن تتحمل كل هذا العبء لابد لها أن تكون امرأة فولاذية، كنت اضحك في داخلي، كنت اسخر من نفسي وأنا أتذكر كيف كادت العواصف أن تطيح بي مرات عدة، حين كنت أعجز عن تدبير مصاريف علاج أمي، أو مصاريف دراسة أخي، أو حين يهاجُمني إحساس الأنوثة ويضربني الشوق للأمومة، كان اليأس يتملكني، وشعور بالهزيمة يعتريني، وعندما تضيق بي الدنيا، كنت دائما التجأ إليك يا ربي، في جوف الليل، حين تنام العيون، أقف بابك، لم تخذلني يوما يا ربي، كنت دائما إلى جواري، كنت تدبر أمري يوم أن اعجز عن تدبير أمري، لم تتخل عني في أحلك الأوقات، لم تتخل عني يوم عقد قران حسين ولا حين اشتريت له تأشيرة السفر، كنت دائما تُلقي في طريقي من يذلل أمري، من يقُرضني، وكنت دائما تسترني، لأظل في عيونهم تلك المرأة الفولاذية، احتاج إليك الآن يا ربي، احتاج إليك وأنا غارقة في أحزاني، تلاطمني تلك الأمواج الهادرة، وتضربني بعنف عواصف الابتلاءات من كل صوب، غيب السجن أخي، ورحلت أمي، حتى سارة التي ظننت أنني سأشد عضدي بها حين تركت بيت سعيد طالبة الطلاق، اختفت هي الأخرى، لم يُعرف لها مكانا، ثلاثة أيام كاملة لم تكل القرية البحث عنها، لم تُتْقِ مكانا دون السؤال، حين عجزوا أبلغنا الشرطة، وأيضا، لا خبر.

كانت الدموع تتهادي على خديها وهي تتذكر كيف أن الابتلاءات عصفت بهم ولم تستثنِ منهم أحدا، حتى هي.. ضاقت ذرعا بشجارات تفيده، قهرها صمت سعيد، لم ينصفها يوما وهو يسمعها تكيل لها الاتهامات، لم ينصفها عندما وصفتها بالشجرة العَجْفَاء التي لا خير فيها، لم يعترض حينما قالتها صريحة، أنها ستزوجه بأخرى. وقتها لم تَدُربعد أن استنفذت الكلمات، فقط، انسحبت في هدوء وأصرت على الطلاق..

أراد سعيد أن يختلي بها عندما زارها لترميم العلاقة وأملا في عودتها معه، استأذنت سارة أن تتركهما وحدهما. يومها وجدته شخصا آخر، تحدث إليها كما لم يتحدث من قبل، حين رجاها في العودة كان على غير العادة رقيقا، خفيض الصوت، الدفء ينبعث من كلماته، أمطرها بوابل من الاعتذارات، غمرها بما لم تسمع من المديح، حدثها أن أمه

التي سقطت مشلولة حين أخبرها بالحقيقة قد تغيرت، باتت إلى الله أقرب، اقتنعت أن الأولاد رزق يهبه الله لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء، أخبرها أنها ودت لو تأتي بنفسها لتعتذر، لكن المرض حال بينها وبين الحضور.. إلا أن سعاد ورغم سعادتها بما تسمع وهذا التغير الكبير،كانت قد حسمت أمرها، وأكدت على مطلبها،" الطلاق "، ولا شئ غير الطلاق، ولمزيد من التأكيد أبرته من أي التزامات مادية..

كانت سعاد حبيسة ذكرياتها حين دق جرس الباب.. لعلها سارة، قالتها بلهفة والابتسامة تزين شفتيها، نهضت مسرعة وهي تحمد الله وتشكر فضله، فتحت الباب، ألجمتها الدهشة، تسمرت للحظات قبل أن تلقي بنفسها بين ذراعيه، وبصوت ممزوج بالفرح والأسى قالت: حسين..

(٢٨)

شوف يا أستاذ شعبان: انت ضيفي والأستاذ ربيع بصرف النظر عن كونه إخواني هو في مقام ابن خالتي، أمه بنت عم أمي لزم، وله علّي حق القرابة.. لكن يا ريت لا انت ولا هو تكلموني في موضوع الإخوان ده ثاني..

شعبان مبتسما: طب ليه؟ وواصل وهو يهز رأسه وابتسامة هادئة لا تفارق شفتيه "مصاريين البطن بتتخانق، أنا عارف انك زعلان، واللي حصل معاك مكنش المفروض يحصل، وعشان كده أول ما نزلت أجازة جيت لك علطول، أعتذر لك، ونشيل سوء التفاهم اللي حصل..

– الموضوع مش كده بالنسبة ليه.. المشاكل في كل مكان، ومش هو دا السبب اللي خلاني أبعد.. الفكرة نفسها أنا مش مقتنع بها، انتم أخدتوني على غِرّة، أنا ضد التحزب الديني، لأنه في النهاية "سينتصر كل حزب لفريقه"، سكت للحظة وواصل حسين حديثه.. يا أستاذ شعبان كل جماعة أو تنظيم بيختطف الدين وبيعتبر نفسه متحدثا باسم الله، بعد ما قلتولي انك من الإخوان حضرت مرة لقاء وكانت المحاضرة بعنوان " لماذا الإخوان "، أسباب كثيرة ساقها المحاضر لتبرير اختيار الإخوان دون غيرهم.. ظني أنها ذات الأسباب التي يسوقها كل فصيل لأنصاره ليقنعوهم أنهم على الحق.. الصدام لا محالة قادم بين هذه الجماعات إن عاجلا أو آجلا.. الجماعات دي بينشق منها فصائل تكبر شوية وينشق من الفصايل فصايل أخرى وكل فصيل له تفسيره للإسلام وأحكامه وأنا مش عاوز أكون حلقة أو عنصر في المعمعه دي..

نظر إلى شعبان، وبهدوء كما لو كان يريد استمالته هو الآخر لفكرة الابتعاد:

كلنا مسلمون يا استاذ شعبان، وكلنا إخوان، فلماذا نضيق واسعا؟!، لماذا نُقصر الإخوة على أعضاء التنظيم وحدهم وقد أرادها الله فسيحة لتستوعب كل المسلمين؟ أنا بتكلم على المبدأ نفسه، بشكل عام، ولكل التنظيمات، ما بالك بالإخوان على وجه الخصوص، والتي يقول مؤسسها في معرض حديثه عن الفهم في الأصول العشرين" أن تفهم الإسلام كما نفهمه " وكما تعلم حضرتك الإسلام نص وتأويل وكل الاختلافات ليست في النصوص وإنما في التأويل، طب لو اختلفت مع السيد "حسن البنا" في تفسيره وتأويله للنصوص هيكون مصيري أيه؟ صمت وكأنما يريد أن يشركه في الإجابة قبل أن يواصل ويجيب على نفسه: " التكفير والخروج من الملة "وهذا ما تفعله الجماعة مع معارضيها الآن، كل مخالفيها الرأي تدخله في خانة أعداء الإسلام، ومن سيعادي الإسلام غير الكفرة !! عشان كده مش مستغرب أن يصف "سيد قطب" أمة كاملة بالجاهلية التي هي نقيض الإسلام، بما يعني " الكفر". فكر

الإخوان كغيره من التنظيمات المشابهة، فكر إقصائي محتكر للحقيقية، يقدس الأشخاص، ناهيك عن موقفه من قضايا كثيرة كالحدود والوطنية..

ورغم اندهاش شعبان من كم الحنق الذي أظهره حسين على التنظيمات الإسلامية لاسيما الإخوان إلا أنه لم يفقد ابتسامته، كان يصغي باهتمام وكأنه يريد أن يستخرج كل ما في جعبة حسين. وبمجرد أن انتهى اطرق شعبان برأسه للحظات وكأنما يجلب الرد من أعماقه قبل أن يرفعها في مواجهة حسين وقد غادرته الابتسامة هذه المرة.. يا عني مفيش فايدة، دا قرارك الأخير؟

– دي قناعاتي ومش هغيرها.

– طب إن لم تكن معنا فعلى الأقل لا تكن ضدنا..

– إزاي يعني ؟

– يعني لا تضرنا ولا نضرك..

– برضه مش فاهم..

– يعني اللي عرفته معانا واللي شفته ميطلعش بره.. الموضوع فيه دم..

– اعتبر دا تهديد يعني؟

– وليه تفهمها كده، ليه متخدهاش ان قصدي ان اي معلومات بتقدمها ممكن تكون سبب في إهدار دم ناس مننا، وادي انت شايف، كل يوم ناس مننا بتموت، وبعدين متنساش إن بينا وبينك عهد.

– دا مكنش عهد.. دا استغلال للحياء.. فجأة وسط الناس دي كلها وفي بيتي، لقيت الدكتور محسن بيقول ان فلان وفلان اصبحوا معانا، من الاخوان..

– إذا كان الأمر كده، طب ليه ما اعترضتش ساعتها؟ ليه مقلتش " لأ "؟

– كنت محرج جدا.. مكنش ممكن اقول " لأ " وسط الحشد ده كله، وكمان في بيتي، فَسكَت.

– والسكوت عندنا بنفهموا على أنه " موافقة.

– انتم بتفهموا بس اللي انتم عايزين تفهموه.. وبعدين بدل متسألني ليه مقولتش لأ، اسأل نفسك ليه ما قولتليش من أول معرفتي بكم إنكم إخوان؟ ساعتها كنت هختار بإرادتي: أأكون معكم أم لا. لكن للأسف انت شخصيا استغليت إني مرسل إليك من أخيك اللي اشتريت منه التأشيرة،واللي بيتاجر بالتأشيرات بما لا يرضي الله، استغليت إني معرفش حد هنا إلا انت، وخدعتني، تعالى نقرأ قرأن، تعالى نلعب كرة، نروح الحديقة، وفجأة تقولي انك إخوان.

يرد شعبان بهدوء وإن لم تغادر وجهه الدهشة:

– تعلم كيف يشوه الإعلام الإخوان، ولو قلنا لك من الأول لنفرت وابتعدت، فمنحناك فرصة لمعايشة الإخوان عن قرب، لكن، أَما وقد عرفت إنك إخوان، ليه كملت بعد كدا؟ ليه كنت بتحضر أُسر وكتائب طالما انك مش مقتنع ورافض بالشكل ده؟

– بعد اللقاء ده قابلت " ماجد الغرباوي " ما انت عارفه، وعارف كمان إنه أعز أصدقائي، وقلت له رأي ده، وإنني مش عايز أكون مع الإخوان، تعرف قالي أيه؟

سكت شعبان منتظرا أن يستكمل حسين كلامه..

– قالي وأنا كمان.. لكنه نصحني " بلاش نخسرهم، وشنا في وشهم، وعلاقات العمل متصلة.. خلينا نحضر يوم ونغيب عشرة.. هما يعني مضونا على ورق؟!، فأخذت برأيه، لحد ما حصلت المشكلة، ورفضتوا تسلموني الجواز أو تمنحوني نقل الكفالة وكانت زي مبيؤلوا "القشة اللي قصمت ظهر البعير"..

تذكر حسين هذا الحوار وهو يعصر فكره بحثا عمن قتل زوجته، وربط بين مقتلها وبين اعترافاته التي طالت قيادات إخوانية. وتذكر قدح البطران لهم حين التقاه بالسجن يومها قال له، أنه لا عزيز لديهم، وأنهم تنكروا لكل خدماته وأحرقوا محله وألقوا به إلى غيابة السجن، لكن حسين عاد وتراجع، الشرطة أيضا أحضرت له " سارة " وابنه بالمعتقل في رسالة تهديد لا تخطئها عين، ثم أن الشرطة أطلقت سراحه دون توجيه أي اتهام له في الوقت الذي كانت فيه سارة متغيبة، وقبيل أن يتعرف هو على جثتها..

آه يا وجعي!! آه يا سارة، من ذلك اللص الذي سلبني الحياة؟ من ذلك المغتصب الذي اغتصب مني روحي؟ كيف لي أن أحيا بدونك؟.. وجع يعتصره، أسئلة عديدة تحاصره، صراع كبير يسيطر عليه، نار مشتعلة في صدره يعتقد أنها لن تهدأ إلا بالانتقام.. الانتقام وحده سيشفي غليله، لكن ممن ينتقم؟ وكيف؟..

(٢٩)

اياك أنا مش وخده بالي من جية وراحت ربيع واللي معاه، واللي رجليهم خدت على بيتنا اليومين دول.. بهدوء أناخت محمد من على يدها إلى مخدعه وواصلت حديثها بعد أن غلفته بحنان أم تخشى على وليدها.. أنا أختك وفي مقام أمك.. بلاش السكة دي يا حسين.. السكة دي أخرتها مش كويسه يا حبيبي.. ارضى باللي قسمه لك ربنا وعيش حياتك عشان ابنك، بص لقدام، الانتقام مش هيفيد وسكت الناس دي دم، مفيش جماعة بتنتصر على دولة، مش دا كلامك؟!و إن كنت نسيت أفكرك.. افتكر كلامك ليه لما كنت دايما بتقولي متقفيش مع تنظيم ولا جماعة ضد وطنك، كنت دائما تقولي كده لما اكلمك على الخناقات اللي بتحصل في المدرسة، فاكر لما قلتلك انهم بيقولوا إن أم السيسي يهودية، ولا لما قالوا إن النظام هيحرف القران، وإنه وإنه.. كنت دايما بترد علّي " لن ترضى عنك الإخوان حتى تكون إخوانيا " وفضلت يومها تحذرني من إني أسمع لهم وامشي على مشيهم، كنت دائما بتقولي وصية واحد مش فاكره اسمه وهو بيقول " لابنه لو جعت زيى، ولو شنقوك ما تلعنش مصر" وبتقولي أرد عليهم وأقول لهم إن الوطن أهم من الأفراد والجماعات.. كل ده نسيته يا حسين؟ متخليش الكراهية تعمي عينيك، الناس دول قلوبهم كلها كره مش عالنظام بس، لأ، دا عالبلد والحياة نفسها.. مش انا اللي هقولك الكلام ده، متصدقهمش يا حبيبي ومتمشيش وراهم.. وافتكر دايما إن أنا وابنك محتاجين لك قوي..

– كنت ساعتها أهبل ، اصلك متعذبتيش العذاب اللي تعذبته، ومشفتيس السلخانة اللي شفتها، مشفتيش أطفال وبنات متبهدليين في السجون. عارفة يا أبله ،وأنا في السجن وهما زفّني على العروسة، وطبعا انت مش عارفة ايه هي العروسة؟ العروسة دي ياسيتي أداة تعذيب على هيئة صليب بيصلبوا الواحد عليها، ويتناوبوا عليه الضرب، وأنا رايح عشان يصلبوني، غلبتني ضحكة غصب عني، تخيلي بأه لما تبقي في الموقف ده ويغلبك ضحكة! عارفة كنت عايز اضحك في موقف زي ده ليه؟

لم ينتظر ردا وواصل حديثه بأسى:

– لما كنت بحارب من أجل إثبات إن مفيش تعذيب في مصر، كنت دائما اسأل المرددين لتلك الاتهامات: شفت بنفسك؟ يقول: لأ، لكن التقارير وشهود بيقولوا أنه فيه؟ فأرد: طالما ما شفتش يبقى ماتتكلمش..

– الآن أنا شفت اللي مكنتش شايفه..

وكأنه تذكر شيئا فعاجلها:

وبعدين، الإخوان في النهاية مجرد تنظيم، لكن دولة بما تملكه من إعلام، ومؤسسات، وجيش من المستشارين وكبار الموظفين تلتهم رواتبهم موازنة الدولة و تفشل في التمييز بين المجرم والبرئ، بين الإرهابي والمواطن المسالم، حتما هي دولة فاشلة، يجب أن نقف بكل قوة في وجهها حتى تستقيم.

تجادله سعاد رغم تلك المرارة التي انتقلت إلى حلقها:

– سامح يا حسين، سامحوءَ لّم ابنك التسامح.

– ابني هيفتخر بيه يوم ما يعرف إني انتقمت له من الظلمة، من اللي قتلوا أمه، من اللي قتلوا المستقبل.

– هو انت فاكر ان انت عشان طلعت م السجن خلاص، مؤكد انك متراقب..أرجوك يا حسين، أتوسل إليك، لو ليه خاطر عندك بلاش الطريق ده.. احنا ملناش حد غيرك، متخلنيش احس ان عمري ضاع هدر، احنا محتاجين لك قوي يا خويا..

هزته دمعتها، وكأنه لم يشأ أن ترى تأثره فانصرف سريعا إلى موعدٍ كان بانتظاره، ودون أن ينبس بكلمة..

(٣٠)

في هدوء ،كان الليل يلملم أوراقه عندما هاجمت قوة أمنية ملثمة منزل عاطف مجدي واقتادته إلى جهة مجهولة، كانت التعليمات الأمنية العليا قد شددت على سرعة ضبطه وإحضاره.. إيماءات البعض ارتدت ثوب الجرأة وتحولت إلى اتهامات صريحة للداخلية بمقتل " سارة أحمد حسين". محاولات حثيثة لجهات معارضة وشخصيات حقوقية لاستغلال القضية في إدانة الداخلية من خلال الربط بين مقتلها والقبض على زوجها المهندس حسين والتنكيل به ثم الإفراج عنه لاحقا دون تهم في نفس الوقت الذي خُطفت فيه سارة وقبيل يوم واحد من العثور على جثتها. الاتهامات بدأت تجد صدى في الشارع وتخشى الداخلية أن تتحول القضية لقضية رأي عام، فضاعفت من جهودها لفك طلاسم القضية..

دوافع القتل كانت غامضة، شخصية سارة المنضبطة لم تجعل لها أعداء، كما أنها ليست ميسورة الحال ولم يبلغ عن فقدان أي شئ مما جعل القتل بدافع السرقة احتمالا ضعيفا. لكن التحريات الأخيرة أشارات إلى عاطف مجدي، سائق التوك توتك، آخر من شوهدت معه بالسوق..

ملف كامل كان أمام الرائد محمد صبحي عن عاطف مجدي، أشعل سيجارة وراح يتصفح: عاطف محمد أحمد مجدي وشهرته عاطف مجدي، ٢٤ سنة، دبلوم تجارة، من مواليد الدقهلية لأسرة بسيطة مكونة من سبعة أفراد، الوالد موظف بهيئة السكة الحديد وألام ربة منزل. ترتيبه الثالث بين أفراد الأسرة والثاني بين الذكور، اشترى توك توك منذ عام فقط، التقارير تقول أنه على علاقة بالإخوان المسلمين ويحضر معهم بعض الفعاليات منذ أكثر من سنتين، لم يكن له اهتمامات سياسية، ولم يرصد له أي نشاط سياسي، غير أنه شوهد مؤخرا في العديد من الوقفات الاحتجاجية التي كانت تنظمها الجماعة لما يعرف بدعم الشرعية، والتي كانت تستغل خلو الطريق الزراعي من المارة في الصباح الباكر وتنظم سلسلة بشرية لعدد من أفرادها تنفض سريعا قبل أن يلحظها الأهالي ويبادرون بفضها، ثم ترفعها على اليوتيوب وتبثها عبر قناة الجزيرة والقنوات التابعة للجماعة..

صمد عاطف واستمر في إنكار التهمة بعض الوقت لكنه، لم يستطع أن يمضي طويلا في هذا الطريق، فللشرطة وسائلها التي تجعل الاعتراف ولو على النفس الخيار الأقل كلفة للمتهمين، مذنبين كانوا أو غير مذنبين، الموت المفاجئ أهون كثيرا من الموت البطيء، وما يمارس ضدهم هو بعينه الموت البطيء..

فقرر عاطف أن ينتحر ويدلي بما لديه من اعترافات أدهشت المحققين.

(٣١)

في منطقة صحراوية مجهولة كان حسين يتدرب على استخدام السلاح في أوضاع مختلفة" راقدا، متحركا، وجاثيا.. من الوضع منبطحا يطلق عدة طلقات فردية من سلاحه الآلي بتحكم كبير ينم عن مهارة وتدريب عاليين، ثم يترجل مطلقا دفعة طلقات آلي متتابعة باتجاه الهدف ثم من الوضع جاثيا يعيد الرمي بدقة صوب الهدف وسط إعجاب وإشادة الحضور وقد اطمأنوا أن حسين بات جاهزا..

تمارين بدنية شاقة أشبه بتلك التي تقوم بها القوات الخاصة، ناهيك عن تمارين الرماية والتدريب على فك وتركيب الأسلحة المختلفة وكيفية استخدامها بالشكل الأمثل، إلى جانب تدريبات نفسية عديدة.. برنامج شامل أعدته الجماعة لـ "حسين " منذ أقنعه ربيع بالانتقام لزوجته وألقى به في أحضان الإخوان من جديد، يومها انفرجت أسارير ربيع وشعر وقتها بنشوة النصر وهو يهمس في نفسه" مفيش حد يقدر يخرج م الإخوان إلا عالقبر".

كانت الجماعة قد أغضبها ردة فعل حسين بعد خروجه من التنظيم، وتجربتها أن الخارجين على التنظيم صنفان، أحدهما مسالم ويندرج تحت هذا الصنف من خرج لفقد مكانة في التنظيم أو لخلاف هنا أو هناك أو لمواءمات بعينها وإن ظلت ميوله إخوانية والأمثلة على هذا الصنف عديدة منها عبد المنعم أبو الفتوح َو محمد حبيب َو كمال الهلباوي.. والآخر يصبح شرسا في معاداة التنظيم بمجرد خروجه، هذا الصنف غالبا ممن لم يتوافق مع فكر الجماعة ومن أمثلته عبد الجليل الشرنوبي الذي اعتبر خروجه إفاقة من غيبوبة طويلة َو ثروت الخرباوي الذي صلى لله شكرا فور خروجه من الجماعة وقال عبارته" ما أجمل عبادة الأحرار".. وتأكد للجماعة بما لا يدع مجالا للشك أن حسين من الصنف الثاني لاسيما بعد لقائه بشعبان، وبعد إفشائه لأسرار الجماعة والذي أدى إلى منع بعض الإخوة من السفر، و اعتقال آخرين، والتنكيل بهم، ووفاة الأخ منصور أحمد ضحية التعذيب في سجون الانقلاب. الأمر الذي كان يتطلب ردا موجعا. فكرت الجماعة في بدائل عديدة، إلى أن استقر الأمر على قتل "سارة"، ليس لأنها كانت دافعا لخروجه من الإخوان إبان فترة تواجدها بالسعودية فحسب ولكن لأنها أيضا كانت كل حياته. قتل سارة يعني قتلا لحسين، بل ويمكن للجماعة وهي التي اعتادت اغتنام أشباه الفرص أن تستفيد من قتلها في تأجيج الرأي العام ضد الدولة التي لم تكتف باعتقال حسين وحسب بل وقتلت زوجته أيضا..

حُسم الأمر وخطط له بعناية فائقة، كل شئ لدى التنظيم مخطط، والكل ترس في عجلة تدار مركزيا لا مجال للخروج عنها، لا مجال للسؤال، كل يأخذ التعليمات وينفذ، عندما استدعى ربيع على عجل لاجتماع مع قيادة مهمة بالمنصورة بشأن حسين لم يسأل وإنما راح يجيب عن الأسئلة، ويدلي بمعلومات، ويتلقى التعليمات. وكانت

التعليمات أن يتقرب منه وأسرته، وأن يبدي تعاطفا معهم ضد الدولة الظالمة، وأن يعرض خدماته على أسرته من منطلق القرابة التي تجمعهم. سمع ربيع وأطاع ولم يسأل، حتى بعد قتل "سارة"، كان في قرارة نفسه يعلم أن للجماعة يدا في مقتلها لاسيما بعد ربطه بين مقتلها وبين المعلومات التي قدمها عنها سواء في لقائه هذا أو لاحقا، ورغم ذلك لم يسأل. السرية هي طابع التنظيم، والكل يعمل في أطار الدائرة المنوطة به، غير مسموح لأحد بالخروج عنها. التوقيتات أيضا هامة. ثمة تدريبات مخصصة لذلك تجريها الأُسر والكتائب لمنسوبيها، ربيع نفسه وبصفته مسئول أسرة في القرية كان يمارسها.. في الفواصل بين الفقرات كان يبدأ متيمنا ويهمس سرا بعبارة ما في أذن جاره، ثم ينقلها جاره لجاره، حتى تكتمل الدائرة و تعود العبارة إليه مرة أخرى ليرى إن كان طرأ عليها تغير من عدمه. كان يؤكد على أهمية الوقت، غير مسموح للأخ التبكير ولا التأخير، كلاهما ضار.. ويبدو أن الجماعة قد ارتأت أن الوقت صار مناسبا للتخلص من سارة، هو انتقام مشروع من وجهة نظرها.. اُستدرجت سارة عبر تكتك لأحد أفراد التنظيم بينما كانت عائدةمن سوق خضار في قرية مجاورة، ولم يُعلم عنها شيئ منذ ذلك الحين. أبلغت الأسرة الشرطة التي عثرت بعد أيام على جثتها مشوهة في منزل مهجور بقرية قريبة. ومنذ تعرف حسين على جثتها ونار الانتقام مستعرة في صدره، يغذيها التنظيم من خلال ربيع وآخرين والذين ثبتوا شكوكه بأن الدولة هي من تقف خلف هذا الحادث. حسين وحده لن يكون قادرا على الانتقام الذي أقسم عليه فوجد في الإخوان سندا وعونا، ووجد التنظيم في عودة حسين إبعادا للشبهة في مقتل سارة، وقنبلة موقوتة معدة للتفجير في وجه الدولة.

برنامج شامل أعدته الجماعة لحسين تطلب أن يتغيب عن العمل شهرا، لم تجد الجماعة صعوبة في تمرير الأمر طبيا عبر عناصرها المنتشرين في وظائف مختلفة، لكن حسين وجد صعوبة في إقناع سعاد بسفره للقاهرة في مهمة عمل قد تستغرق الشهر.

كانت الجماعة تسابق الزمن، كانت تخشى أن يفتر عزم حسين بمرور الوقت أو أن يجَد جديد، فسارعت بتعبئته تجاه الدولة التي تقتل الشباب والأولاد والنساء والأطفال. شاهد كثيرا من الفيديوهات التي نسبت إلى الداخلية وتتضمن مشاهد تعذيب بشعة لاسيما بحق الأطفال والنساء، شاهد رباطة جأش بنات لازلن في عمر الزهور خلف القضبان ونسوة يقصصن كيف اغتصبن داخل السجون، تعبئة ضخمة لحسين في وقت قصير قبل أن يصطحبوه إلى منطقة صحراوية بالقرب من القاهرة لمدة شهر لم ير فيها محمد وسعاد إلا مرة واحدة عندما ضربه الشوق فاستأذن في يومين لازمه فيهما ربيع كظله لدواع الرقابة، كان عليه بعدهما وقبل أن يغادر أن يؤكد لسعاد مرة أخرى أنه في مهمة عمل تابعه لشغله، ورغم الشك الذي يملؤها وتلك النظرة الرافضة التي أفصحت عنها عيناها إلا أنها بلعت الأمر من جديد، وودعته بأصناف شتى من الدعوات..

شهر ترك أثره في حسين..اعتاد خشونة الصحراء واظهر قدرات فائقة في استخدام الأسلحة المختلفة ناهيك عن اللياقة البدنية المرتفعة وروح الانتقام التي يغذيها الإخوان فاستمرت متأججة بداخله، حتى أنه أكثر من مرة يستفسر عن الموعد فيأتيه الرد" لا تتعجل يا أخ حسين، كل شئ بأوانه" فيواصل الانتظار..

وإمعانا في السيطرة أُعد له برنامج تربوي شامل إلى جانب البرنامج العسكري، فجهاد النفس في تلك الظروف له أهمية خاصة، كان يجلس مع شيوخ ويحضر لقاءات كلها تحض على الجهاد ضد الكفرة الذين يحاربون الإسلام وعلى رأسه النظام الحاكم وداخليته التي يحتمي بها، ليال عديدة أقامها مع بعض الشخصيات المنتقاة من أصحاب اللحى الطويلة والكلام المؤثر، يقيمون الليل في صلاة وذكر وشحذ الهمم واستعادة فريضة الجهاد الغائبة، فتهون التضحية بالنفس من أجل إعلاء كلمة لا اله إلا الله.. واستمر البرنامج حتى بعد عودته من خلال إخوان القرية وزوارهم واللقاءات التي كانت تعقد في المنطقة المحيطة. كان يواظب على حضور البرامج الرياضية الأسبوعية والتي تم تعديل موعدها من الجمعة إلى الثلاثاء حتى يتسنى له أن يقضي يومي الأجازة في تدريباته العسكرية.. فقط سؤال كان يطارده باستمرار: متى وأين وكيف؟.

(٣٢)

انتصبت عيناها فجأة، اخترقت الأشياء أمامها بدءا من الكتاب والمنضدة قبل أن تتسمر أمام صورته للحظات، سألت نفسها عندما عادت: يا ترى امتى هتتفك عقدة لسانه وينطق؟ وبعد محاولات فاشلة لإيجاد إجابة على تساؤلها قفز إلى ذهنها اقتراح: طب ما تحاول تساعده.. يأتيها الرد" طب أزاي؟".. ازاي ازاي..ازاي يا بت يا سارة؟

هبت فجأة وسألت أمها بلؤم: ماما..

– نعم..

– مش هتودي طبق بامية لأبله سعاد؟

– اشمعنى؟!

– أهو واجب يا ماما..

– ودي يا حبيبتي..

لم تفكر لحظة اتخاذها القرار بما بعده، لكن بمجرد أن حملت طبق البامية وعبرت الطريق باتجاه منزل حسين والسؤال عاد يلح: طب ازاي هتساعده؟ لم تجد إجابة. كان ساهما عندما تجلت له، وبلا شفقة راح جسده يتلقى سهامها.. وقف مشدودا مشدوها وكأنما حط الطير فوق رأسه. همست في دلال مذيب للأعصاب " أبله سعاد موجودة "، لم ينطق وإنما أشار لها بالدخول وما زالت عيناه معلقتين عليها.. مشيت بضع خطوات ثم توقفت وعادت ترميه بسهم آخر وهو الذي لم يبرأ بعد من سهمها الأول "ماما بعته لها طبق البامية ده".. خرجت سعاد على صوتها، وبطرف عينها لمحت حسين وقد نزل عليه سهم الله، شارد في ملكوت الله، تبسمت وتعمدت أن ترفع صوتها وهي تنكزه بكتفه.. اتفضلي يا سارة.. يارب منحرمش منكم ومن مجايبكم.. طب اقعدي شوي.

– معلش يأبله وقت ثاني..

– طب يا حبيبتي سلمي لي على ماما كثير واشكريها.

خرجت بتؤدة وهو يتابعها، أبت إلا أن تودعه بسهم ثالث قبل أن تتخطى عتبات الباب إلى الشارع. عادت سعاد وقلبها يقفز من الفرحة تظهر أثرها في بسمة هادئة على شفتيها.. يا واد اتقل شوية.

– تقصدي ايه؟

– عينيك فضحاك.. اتقل شوية..

– أطرق برأسه فسارعت ترفعها بيد أم حانية ترفض له الانكسار: ذاكر واجتهد وأنا اخطبهالك.. واحنا هنلاقي أحسن منها فين، من توبنا وبنت حلال ويتيمة زينا..

– لكن منين يا أبله و انت عارفه الحال..

وأدت تنهيدة في مهدها قبل أن تخرج من أعماقها وبابتسامة غلفها الأمل قالت:

– ربك هيسهلها.. اجتهد انت بس وذاكر وخليها على الله..

(٣٣)

لقد ورثت الأسرة الوسيطة من ربها الذي لم يمكث معهم طويلا، بعد أن رحل مبكرا، لم يكن الشيخ "مرسي أحمد" متشددا، كان باش الوجه مبتسما ضحوكا مداعبا للجميع، تراه مع كل إشراقة شمس يتنقل بين كثير من بيوت القرية، يتلوا ما يسر الله له من القرآن بصوت دقيق لا يتناسب البتة مع ضخامة جسده ثم يتبعه بأدعية لأهل البيت أحياء وأمواتا في مقابل قليل من المال أو ما تجود به أنفسهم من الحبوب عقب الحصاد.. يعود إلى بيته البسيط ذي الثلاث غرف، يجلس في وسط الدار على دكه خشبية وضعت إلى جوار الباب، يقرأ الآيات ويردد الصبية من خلفه بصوت عال.. من حين لآخر يرمي بنظرة إلى الشارع، يتابع المارة ويرد السلام بإشارة من يده مصحوبة بابتسامة دون أن يتوقف لسانه عن التلاوة، يشير بخيزرانته لأعلى فترتفع أصوات الصبية وقد ضاق بهم المكان. بمرور الوقت تأخذه الجلالة، ويتمايل بجزعه للأمام وللخلف وهو يتلو مستمتعا. يقلده الصغار فتجتاحه حالة من النشوى والانتصار لاسيما وهو يتخيل حال منافسه..

لم يكن في القرية غير كُتابيَن، أحدهما للشيخ مرسي والآخر لمنافسه الشيخ مجاهد، مؤذن القرية، ورغم حلاوة صوت الشيخ مجاهد وتلك البحة التي تضفي جمالا على صوته إلا أن صرامته وشدته مع الأولاد دفعتهم إلى كُتاب الشيخ مرسي.. ثمة علاقة خاصة ربطت الشيخ مرسي بأهل القرية، ورغم أنه لم يكن مؤهلا للفتوى إلا أنهم كانوا يستفتونه. كثير منهم يعتقد أن كل حافظ للقرآن شيخ، وكل شيخ مؤهل للفتوى. كما أنهم كانوا يتوقعون فتواه التي عادة ما تنتصر لهواهم.. فعندما يسأله الشاب محمد أبو سعده الموظف في الوحدة المحلية وهو العاشق لأم كلثوم عن رأيه في الغناء وفي أم كلثوم على وجه التحديد لا يخيب الشيخ مرسي ظنه ويمتدح الغناء البعيد عن الإسفاف وإثارة الغرائز ثم يردد وهو يتنهد كالعاشق الولهان " أم كلثوم، هيه هيه.. هو فيه حد زي أم كلثوم؟! أم كلثوم دي حاجة ثانية خالص..

يبتسم محمد أبو سعده وهو ينصت إليه متحفزا لما هو آت..

أم كلثوم دي بتاع القلوب النضيفة، بتاع أصحاب الحس المرهف، تاخدك كده لعالم ثاني وترجعك رقيق القلب.. يواصل الشيخ مرسي وقد حن صوته أكثر فأكثر: يا محمد أبو سعده إن الله جميل يحب الجمال وهو فيه أجمل من صوت الست أم كلثوم!! على الأقل أحسن من الخبط والرزع بتوع مغنيين الأيام دي.. فيضحك محمد أبو سعده بعد أن حصل على ما يتلاقى و هواه..

نوادر لا تنتهي تحكى وتقص عن الشيخ مرسي.. مرات كان يتغيب خطيب الجمعة ولا يجد الناس بديلا، فيقدموا الشيخ مرسي الذي يصعد ويخطب خطبة خفيفة يجمع شتاتها من كل الاتجاهات. في واحدة من هذه المرات صعد المنبر وحمد الله واثني عليه بما هو أهل له، وصلى وسلم على نبي الرحمة وعلى أهله وصحبه وسلم، ثم أخبر الحضور أن موضوع خطبة اليوم هو " العطاء في الإسلام " وقرأ قول الله تعالى " فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى" ثم تحدث عن أهمية العطاء الذي يمنع الأحقاد، و قبل أن ينهي أخذ يحض الناس على مساعدة بعضهم البعض وينصح الحضور بتأثر بالغ أجبر الجميع على الانتباه " اللي معاه يعطي للي معهوش، والمليان يكب على الفاضي ".. في اليوم التالي كان في طريقه عائدا إلى منزله يحمل كيسا من الجوافة برائحتها الفواحة، خشي عليها من كرة طائشة فحذر الصبية وهو يعبر متعجلا. توقف الصبية عن اللعب ريثما يعبر، غير أن أحدهم تقدم نحوه طالبا حبة من الجوافة، ولما تمنع ذكره الصبي بمقولته بالأمس" اللي معاه يعطي للي معهوش" شعر بالإحراج وأعطاه واحدة، ليلتف الآخرون حوله ويطلبون أيضا، فأعطاهم وهو يردد بصوت لا يخلو من الجد، " اسمع يا واد انت وهو: " يلعن أبويه إن قلت لكم حاجة ثاني بعد كده..

وفي واقعة أخرى كان يتنقل كعادته بين القبور عصر كل خميس، يجلس حيث يجد النسوة على رأس قبور موتاهم، يتلو بعض الآيات ويدعو للميت، فتدس ما جادت به أنفسهن في يده وتوصيه بالميت فيكثر له من الدعاء، ذات مرة طالبته أحداهن وقد كانت تحت تأثير موت زوجها الذي غادرها منذ فترة وجيزة بقراءة سورة الجنة، وكعادة كثير من المصريين نحو موتاهم كانت توزع قرص وفاكهة رحمة ونور على زوجها، اصطدمت عيناه بثلاث قرصات وأربع حبات جوافة متبقية في " سبت " إلى جوارها. هم أن يخبرها أنه لا توجد سورة بهذا الاسم غير أنه أشفق عليها.. كانت تلح عليه: " نفسي يدخل الجنة ". فارتفع صوته الدقيق متأثرا " اللهم ادخله الجنة، اللهم ادخله الجنة، اللهم ادخله الجنة " ثم همس مازحا هذه ثلاث مقابل الثلاث قرصات، وكرر دعاءه أربعا أخرى مقابل الأربع جوافات، فهدأت نفسها، وسُرت وأعطته مما معها. وقد تغير مظهر الشيخ مرسي بعد أن حصل على لقب مؤذن القرية فصار يرتدي جلبابا فخما ويصطحب حقيبة " سامسونايت " في تنقلاته وفي حفلات عقد القرآن، ولم يعد لديه وقت لكُتابه ولا للذهاب إلى المقابر كما أن وضعه الجديد وشكله أمام الناس لم يعد يسمحا بذلك، فاكتفى بوظيفة المأذون وما تجلبه له من دخل ووضع اجتماعي وإن لم يتخل عن بشاشة وجهة ومداعبته للجميع خاصة نساء القرية، فتراه يمازح من تخطاها قطار الزواج مداعبا " هما العرسان اتصوا في نظرهم عشان يسيبوا الفرسة دي " فتبتسم "مش كده والنبي !، قولهم يا مولانا"، ويمازح المتزوجة " هو الراجل قايم بالواجب ولا لأ؟ قوللي املص لك ودانه.. في طريقه،كان أحيانا يطرق شباك غرفة نوم أحدهم ويداعبه بصوت يسمعه المارة و الجيران، اشتغل

كويس يا ولا.. ارفع راسنا. وإن صادف إحداهن مكشرة وهي تسير إلى جوار زوجها في الشارع يمازحه " الست مش مبسوطة منك، شكلك مانتش شايف شغلكم مظبوط"، وكان الجميع يتقبل منه، لم تغضب النساء من مداعباته، كما لم يثر الرجال غضبا..

ورغم رحيل الشيخ مبكرا إلى أنه ترك أثره وبصمته في هذا البيت فلم يكن للتشدد موطئا، وكانوا كأغلب الأسر المصرية، يحفظون شيئا من القرآن و يحافظون على الصلاة وأيضا يسمعون الموسيقى والأفلام ويعشقون الحياة. لم تمنعهم صعوبة الحياة بعد رحيله من الاستمتاع ببقايا الفرح ومخلفات الدنيا. بواعث السعادة على قلتها لم تترك للضجر مكانا في قلوبهم، فلم يحملوا غصة من الدنيا ولم يلعنوا الفقر كما يفعل الكثيرون. كانت القناعة كنزهم الذي لا يفنى، كانت الأم رغم آلامها تنظر مبتهجة العين وهي ترى ستر الله لهم بعد وفاة الأب، وكانت" سعاد "تظلل الفرحة مساحات من صحرائها وهي ترى نبتتها تكبر أمام عينيها أو في دعوة أم متضرعة إلى الله في جوف الليل بأن يسترها ويجزيها خير الجزاء ويعينها ويقويها على الحمل الثقيل الذي ورثته. أما حسين فكانت له فرحة أخرى..

(٣٤)

من قال أن مرآة الحب عمياء؟! هي عمياء إن لم تر ذاك الجمال الفاحش، أجل، عمياء إن لم تر هذا الوجه الذي يستمد القمر منه ضوءه، وتشرق لأجله الشمس، كيف لمرآة أن ترى عيوب امرأة لا تشبهها النساء، يحار الشعراء في وصف جمالها وتعجز القصائد أن توفيها حقها، كعادتهم ظالمون، وإلا كيف لهم أن يتهموا مرآة بالعمى لأنها لم تبصر هفوات لامرأة يستدل بجمالها على قدرة الخالق!!

لم تكن سارة مجرد فتاة عشرينية تسكن ذلك البيت القديم المقابل لبيته، وإنما كانت بعودها الفرنسي الممشوق وعينيها الواسعتين وأنفها الدقيق قمرا على الأرض ينير له ظلمة الحاضر ويمنحه أملا في المستقبل. كانت إحدى أسباب تفوقه الدراسي، يسابق الزمن ويتعجل الدقائق والثواني لينتهي من دراسته ويقترب من الحلم. كانت سارة حلمه، والنظر إلى عينيها إغراق في الحلم، كانا يتقابلان مع نسمات كل صباح بصدفة مقصودة خططت لها القلوب بعيدا عن الألسن، وبعد أن يتبادلا تحية الصباح، يمشيا أمتارا قليلة صامتين في طريقهما إلى موقف السيارات، كثيرا ما كان يدفع لها أجرة الميكروباص، كان يعلم أنه عبء إضافي على ميزانية الأسرة، لكنه كان يعتقد أنها فرد من الأسرة، اليتم جمع بينهما، مات أبوها وتركها وحيدة لأم مجتهدة. تقضي ساعات طويلة في بقالتها المتواضعة. تخلى عن حيائه، تجرأ ذات صباح وحدثها برغبته في لقاء يجمعه بها بعيدا عن البلد. يريد أن يحدثها في أمر هام.. اهتز قلبها فرحا، حالة من النشوى تملكتها وكادت تقذف بها إلى عنان السماء،كانت تتوقع ذلك الأمر الهام، تهمس لنفسها" أخيرا هينطق!!"..

بعد أن فرغت من محاضراتها، انتظرته أمام بوابة كلية التربية، هي تدرس في السنة النهائية تربية تعليم أساسي، بينما كان هو في نهائي هندسة، لم يتأخر كثيرا فالمسافة بين كلتي الهندسة والتربية ليست بعيدة..

كعادته، تغادره الكلمات حين يراها. مشيا صامتين باتجاه موقف الميكروباص على ناصية شارع جيهان، دقات قلبيهما متسارعة. لم يستقلا وسيلة مواصلات، بل عرجا يمينا وسارا في شارع الجمهورية يطالعون العمارات الشاهقة والمحلات. بعد أن تعدو مديرية الأمن انحرفا يمينا باتجاه شارع بورسعيد وسوق الخواجات والبضائع الشعبية، اشترى لها دبدوبا صغيرا، شعر أن فرحتها بحجم الكون، في طريقهما إلى المشاية السفلية أسفل كبري طلخا العتيق أخذا اثنين آيس كريم ، جلس على أريكة خشبية في مواجهة النهر. وعلى عكس الألسن التي مازالت محتفظة بفقر الكلمات كانت القلوب فصيحة التعبير عن مشاعرها،ظلت تنظر إلى وجهه المستدير و عينيه الزرقاويين التي تتأملها قبل أن تبادر:

– خير.. كنت هتقلي حاجة..

– وهو يحدق في أعماق عينيها وبتلعثم، الحقيقة.. الحقيقية..

تستنطقه وكأنما قد فرغ صبرها: هيييييييه..

– الحقيقية

ما تقول يا بني بقى، اتكلم.. محتاجة اسمع منك،كفاية نظرات، قتلتني نظرات..

– هقول اهوه.. وبعدين لو قعدت عمري أبصلك مش هامل.

تتنفس بعمق مغمضة العينين في انتشاء، و بدلع قالت:و أيه كمان..

ردة فعلها منحته شيئا من الشجاعة فواصل حديثه المرهف:

– الحقيقة أنا مبعرفش أعبر كويس عن اللي جوايا، لكن اللي جواه مشاعر حقيقية زي اللي جوايا اكيد مشاعره هي اللي هاتعبر عن نفسها حتى ولو بكلمة أو بنظرة..

كانت كلماته لا تجد عناء في الوصول إلى قلبها، حين توقف لم تشأ أن تقطع عليه استرساله، فواصلت الصمت حتى عاد وتكلم، قال:

– أنا مش عارف انت عملتي فيا أيه يا سارة، شقلبتي كياني، صورتك مبتفارقش خيالي، بشوفك على صفحات الكتاب، على صفحة النهر، على وجه القمر، على الفضاء،م الآخر " أراك أينما تحل عيني".

– يا سيدي ياسيدي.. دا احنا انطقنا خالص، وساكت ليه يا بنيْ غَلّبتني.. كنت مستنياك تنطق..

– يعني انت حسه بيه؟ قالها مأخوذا، متلهفا الإجابة..

–اياك انا مش واخده بالي من نظراتك..ووقفتك أدام البيت وعينيك مسمرة على بيتنا، كنت بشوفك من ورا الشباك واقول امتى هينطق؟ أوقات اعمل حجة أي حاجة، أجيب طبق فول ولا بامية عشان أشوفك.. ويمكن ربنا يفك عقدة لسانك وتنطق.

– انت ريحتيني قوي، أنا بذاكر عشانك يا سارة، أملي هو انتي.. يارب يوفقنا ويجمعنا على خير.

– يارب..

طالعت ساعة هاتفها ثم همست له: مش ياللا بقى أصل متعودتش أتأخر.. زمان ماما قلقانة علي..

حين هما بالمغادرة كانت الشمس تحتضن صفحة النهر التي تشبحت بلونها القاني.. مشيا سويا باتجاه محطة الميكروباص ولم يخلو الطريق من همسات وكلمات ونظرات وبسمات، استقلا الميكروباص، وكعادته، دفع لها..

(٣٥)

مشهد أشبه بالوداع.. يحتضن محمد بعنف، يكاد يعتصره وهو يوصيها به، يطلب منها أن تعلمه جيدا، مرات عدة أكد عليها أن تعلمه أن يقول " لأ" عندما يتطلب الأمر ذلك، وعندما سألته: "اشمعنا " لأ"؟ أجابها بندم: لو كنت قدرت أقولها في الوقت المناسب مكنش دا حالنا.. صمت للحظات ثم وجه كلامه إليها:انت كمان لو كنت قلت "لأ" مكنتيش اتجوزت الجوازة دي، ومكنش حصلك اللي حصل.. يومها ردت عليه بأن ما يحدث لنا هي أقدارنا، ولا مفر لنا من أقدارنا، عندك سارة مثلا، قالت " لأ"، على ما فهمت منك، ولم تحمها " لأ" من قدرها المكتوب.. صحيح علينا أن نُعلم ونُربي على ما نراه صوابا غير أننا يجب أن نتأكد أن ذلك لن يمنع قدرا..

الآن يؤكد عليها ويلح من جديد أن تعلمه وتربيه على قول "لأ" ولم يعطها فرصة للعودة بالنقاش إلى المربع صفر وإنما واصل: مش كل واحد يقدر يقول " لأ " يا أبله.. اللي يقدروا عليها هم قلة، والقلة تعني الندرة، والندرة تعني القيمة، وأنا عايز محمد يبقى قيمة.. الأجساد ترحل وتفنى يا أبله و تبقى القيمة، وقيمة سارة باقية معنا ما حيينا.. أرجوك يا أبله..

– إيه مشهد الوداع اللي انت عمله ده يا بني؟ فيك أيه؟ وأيه الدموع اللي ماليه عينيك دي؟.. ربنا يخليك له تربيه بنفسك وتعلمه يقول " لأ وستين لأ كمان".. الموضوع كله يومين هتغيبهم تبع الشغل زي ما انت فهمتني. تحولت عينيها وكأنما استحضرت شيئا ما وبصوت تغيرت نبرته: واللا الموضوع فيه حاجة ثانية وأنا مش عارفه؟ أوعى يا حسين يكون اللي في بالي و بتخدعني..

– لا ثانية ولا ثالثه يا أبله..كل الحكاية إني عايز أعلم محمد اللي اكتشفت إني كنت محتاج أتعلمه عشان ميقعش في نفس الأخطاء وميواجهش نفس المتاعب.

– ربنا يخليك لنا يا حبيبي وتعلمه وتجوزه وتفرح بيه..صمتت مطرقة الرأس وكأنما تفكر في شئ ما ثم ارتفعت برأسها تجاهه وألقت في وجهه بما ترددت في قوله كثيرا: وبعدين ما أنت في الأول والاخر مسيرك هتشوف له أم، ولا انت هتفضل على الحال ده؟.. لازم تتجوز يا حسين..

لاحظت امتعاضا على وجهه حاول تلافيه سريعا، فهدأت من نبرتها:

– متزعلش أنا عارفه أد أيه انت كنت بتحب سارة، و انت عارف أد أيه أنا كمان كنت بحبها، لكن دي سنة الحياة يا حبيبي، و انت لسه شاب. انت وابنك محتاجين في حياتكم واحدة ست غيري.

– البركة فيك يا أبله..

– يا حسين دور على عروسة كويسه بدل ما أدور أنا واختار، الموضوع ده بالذات مش عايزاك تقول فيه " لأ"..
خلي " لأ" لحاجات ثانية..

انفرجت شفتاه عن ابتسامه خفيفة لم تغط على لمعة عينية التي اغرورقت بالدموع..

صورة هذا المشهد تسيطر عليها وتربط بينه وبين تأخره، أيام عشر مضت منذ مغادرته ولا حس ولا خبر، حاولت الاتصال به غير أن هاتفه دائم الإغلاق. كانت جد قلقة.. لا تدري أي هاجس ذلك الذي يقتحمها الآن، ويدعوها للذهاب إلى ربيع والسؤال عنه، همت أن تفعل غير أنها تراجعت، آثرت التريث خشية من حرج قد تسببه لأخيها. لكن الغياب طال والسكوت بات مضيعة للوقت، قررت أن تسأل أولا في عمله، هي الجهة التي أرسلته في مهمة. غير أن ما علمته أصابها بصدمة " لم نرسله مطلقا في مهام عمل "،هالها ما علمت، تساءلت في نفسها:حسين لم يرُسل في مهام قط !!.. تأكدت ظنونها. على عجل سألت ربيع لم تجد لديه ردا غير مزيد من الشكوك.. لم تجد بدا من إبلاغ الشرطة. وعندما سُئلت عمن يترددون عليه لم تتردد:ربيع ورفاقه..

(٣٦)

في مشهد مهيب يخلع القلوب كان حسين مسجى على خشبة طولية في غرفة ضيقة وقد أحاط به بعض الأخوة وقد شرعوا بإجراءات الغسل..طقوس وجهد كبير بذلته الجماعة لإضفاء الصبغة الدينية على العملية وتثبيت حسين ومن معه على أن عمليتهم هذه إنما هي لله ونصرة لدينه، ونصرة الدين ليست بالدعوة فقط وإنما بالدعوة والجهاد" كتاب يهدي وسيف ينتصر"، ونحن الآن ننتصر بالسيف ليس لسارة وحدها وإنما لعشرات مثلها، ننتصر ونقتص ممن قتل الأطفال واغتصب النساء وهدم المساجد وقتل الساجدين وضيق على المسلمين وحارب الله ورسوله..

قبل أن يتطرق أبو عبدالله المصري لتفاصيل العملية، ذَكر الأخوة بقول الله تعالى " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به" وكرر ثلاثا " فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به" وفي الثالثة أكمل" وذلك هو الفوز العظيم".. اليوم يا أخواني هو يوم الملحمة، يومك يا حسين، و يومك يا عصام، ويومك يا أشرف. اليوم يوم من أيام الإسلام يوم نلقن أعداء الله صفعة لن ينسوها، يوم نكسر هيبتهم في أكبر وكر أمني في الدقهلية.. كان الهدف مديرية أمن الدقهلية، حيث وردت تحريات عن لقاء سيعقد عند العاشرة مساء الاثنين ٢٣-١٢-٢٠١٣م لقيادات أمنية كبرى لمناقشة خطط تأمين الاستفتاء على الدستور، وتحددت ساعة الصفر بـ "الحادية عشر" مساء.. ساعات قليلة كافية للانتهاء من الإجراءات التي شرحها أبو عبد الله أكثر من مرة وأجاب على كل استفساراتهم.. سيغتسل المشاركون تحسبا للشهادة، عربتان ودراجة نارية ستستخدمان في العملية..قبل بدء الاجتماع بنصف الساعة سيتوجه أشرف إلى الهدف بالدراجة النارية، يتركها في المكان المتفق عليه، ثم يتجه نحو المكان المحدد له، ليراقب الهدف عن بعد. في العاشرة سيمر عصام وحسين في سيارة واحدة من أمام المديرية لاستكشاف الوضع ولكسر الهيبة في نفوسهما، يتخطيان المديرية باتجاه قصر الثقافة يدوران ويعودان في الاتجاه المعاكس باتجاه الجامعة سيستغرق الأمر نصف الساعة حتى يصل إلى جزيرة الورد فيفترقا.. يستقل حسين تاكسي إلى شارع جيهان، ستكون السيارة " المفخخة " في الانتظار في شارع جانبي. يستمر عصام في طريقة باتجاه المديرية لمسح أخير لمنطقة العمليات وليأخذ مكانا مميزا للتصوير. في تمام الحادية عشر إلا الربع يتحرك حسين بالسيارة المفخخة باتجاه الهدف، ١٥ دقيقة كافية في هذا التوقيت للوصول إلى مديرية الأمن، يتوقف مع بداية المبنى من ناحيته الغربية ويتظاهر وكأنما عطلا أصاب السيارة، الوقت الذي سيستغرقه الحارس للوصول إلى السيارة لاستيضاح سبب التوقف كاف لفرار حسين باتجاه أشرف المنتظر بالدراجة النارية، في الوقت

الذي يفجر فيه عصام السيارة عن بعد ويلتقط فيديو للحظة الانفجار قبل الانسحاب سريعا.. أمير المجموعة أشرف، وله كامل الصلاحيات في إدارة الغزوة..

كانت تلك هي التعليمات العامة لهم جميعا، لكن تعليمات خاصة قد صدرت لأشرف بتفجير السيارة عن بعد بمجرد أن تدخل حيز الهدف ودون انتظار لخروج "حسين" على أن يتولى عصام مهمة التصوير، وأن يغادرا محيط العملية فور التقاط المشهد الأول للانفجار، تاركين المشاهد اللاحقة لكاميرات المحمول والفضائيات التي حتما ستتوافد تباعا..

لم ينس أبو عبدالله في لحظة الوداع أن يعيد عليهم ويؤكد بصوته المؤثر أن الموت في سبيل الله أسمى أمانينا، نحن الذين بايعنا محمدا، نحن المؤمنون الذين اشترى الله منهم أنفسهم نقدمها الآن برضا نصرة لله تعالى.. دقائق أخيرة سمح بها لتبادل الوصايا بالدعاء، وطلب السماح، وتبليغ السلام للإخوة جميعا، وأحضان دافئة قطعتها طرقات ملحة تطلب لقاء أبو عبد الله لأمر هام. استأذن وهو يتحكم في أعصابه ويحتفظ بهدوئه وبسمة ذابلة على شفتيه. كانت التعليمات واضحة بعدم قطع الجلسة مهما كانت الأسباب، حتما سيكون له تصرف آخر بعد انتهاء العملية، هذه سابقة خطيرة.. التفت إليه وهو يناوله الهاتف ثم تغير وجهه فجأة وتوارت الابتسامة خلف وجه مكفهر مشوب بالقلق.. لحظات كتم فيها غيظه واستعاد نفسه قبل أن يدخل عليهم معلنا تعليق العملية إلى أجل آخر وسط ذهول الجميع..

تعليمات أمنية مشددة تحرص عليها الجماعة، قبل أي اجتماع يُ تْرك الهاتف خارج القاعة بمسافة معينة، وأحيانا يتطلب الأمر نزع بطارية الهاتف، قبيل أي عملية جهادية يمنع منعا باتا قطع الجلسة لأي سبب كان إلا لأمر جلل. و ما حدث قبيل غزوة المنصورة كان جللا. اكتشفت العيون أن حسين خائن و عميل، وأنه تم تجنيده من قبل الأمن الوطني، وأن تحركاتهم مرصودة، وكمائن عدة بانتظارهم. الأمر الذي تطلب إرجاء العملية لدراسة البدائل ولمعرفة كيفية التعامل مع حسين..

اجتماع على عجل تم بين قيادات في التنظيم، المعلومات المتوافرة تفيد أن حسين كان يعلم أن الإخوان وراء مقتل سارة، لكنهم لا يدرون متى ولا كيف عرف، ربما سمع الأمر منهم مصادفة، أو أن الشرطة توصلت لشئ أخبرته به لاسيما بعد إلقاء القبض على عاطف مجدي، ثمة احتمال آخر وهو أن يكون حسين مدسوسا عليهم ويعمل مرشدا للأمن منذ البداية. لذا كانت الأوامر العاجلة برفع شارة التحدي، وتنفيذ العملية بأي شكل، والتخلص من حسين فورا.. وبدأ تنفيذ الخطة، أوامر صدرت باختفاء الأخوة الثلاث فرادى في الأماكن البديلة، في تمام الثانية عشر والربع أي بعد نحو ثلاث ساعات، يختطف ملثمون حسين، يوثقوا يديه ويضعوا عصابة على عينيه ولاصقا على فمه ويلقوا به في حقيبة السيارة المفخخة، دراجة بخارية كانت تتقدم السيارة المفخخة كمفرزة أمامية تستكشف الوضع. المعلومات الواردة تؤكد أن الكمائن استرخت وانفض بعضها. الخطة البديلة يبدو أنها تسير على ما يرام.. كانت الخطة تعتمد على منح حسين وقتا كافيا للإبلاغ عن إلغاء العملية.. تحرك أشرف بالسيارة المفخخة باتجاه المديرية، تجنب الطرق الرئيسية هذه المرة وسلك طرقا فرعية بديلة، تخطت الدراجة المديرية بسلام وانحرفت يمينا باتجاه شارع بورسعيد واستدارت عائدة باتجاه المديرية من جديد، كان أشرف يقود العربية بتمهل وعينيه على المرآة، تحرك إلى الشارع الجانبي المتاخم للمديرية عندما لمح الدراجة، توقف بمحاذاة المديرية ونزل سريعا وألقي بنفسه على الدراجة خلف عصام لتبتلعهما حواري المدينة الهادئة. دقائق معدودة لم تسعف الحارس الذي تقدم لمعاينة السيارة المتوقفة،فقد بدد دوي انفجار هائل هدوء المدينة القابعة على ضفاف النيل، وخلف قتلى وجرحى، وأحدث دمارا واسعا..

مشاهد الدمار التي لحقت بالمديرية والمباني المجاورة تتناقلها وسائل الإعلام، ثمة اتفاق أخلاقي نادر بعدم نشر صور الضحايا. ملايين المشاهدين تتابع الحدث وتداعياته. وكالات الأنباء تبث أخبارا متتالية تحت عنوان " عاجل". المصريون في البيوت والمقاهي يتنقلون بين القنوات سريعا.. قناة العربية تبرز إدانة حزب النور السلفي للعملية، الجزيرة تبرز نفي الإخوان تورطهم في العملية وتتهم سلطات الانقلاب بأنها تقف وراء العملية.. التليفزيون المصري الذي لحق بالحدث متأخرا يبرز الإدانات الداخلية والدولية للحادث الإرهابي الغشيم، وينقل تصريحات وزير الداخلية التي يتهم فيها الإخوان بالمسئولية عن العملية، كما يبرز تصريحات رئيس الوزراء أن مثل هذه العمليات لن تزيدنا إلا إصرارا على اجتثاث الإرهاب.. ويعيد من وقت لآخر إذاعة بيان وزارة الداخلية حول تفجير مديرية أمن الدقهلية الإرهابي والذي قالت فيه "إن التفجير وقع في حوالي الواحدة من صباح اليوم الثلاثاء..

وأضاف البيان أن الحادث أسفر عن استشهاد عددٍ من رجال الشرطة والمواطنين الذين تصادف وجودهم بمنطقة الانفجار وإصابة آخرين، كما أسفر عن انهيار واجهة المبنى الجانبي للمديرية وانهيار جزئي في عدد من المباني القريبة..

وفي خبر عاجل، أعلن التليفزيون أن منفذ الهجوم هو الإرهابي " حسين مرسي أحمد " وأن وزارة الداخلية بصدد الإدلاء ببيان جديد لكشف تفاصيل جديدة عن الحادث ومنفذيه..

ساعات مضت في انتظار البيان الذي جاء متأخرا وفيه حمَّل جماعة الإخوان مسئولية العمل الإرهابي الجبان، وقال أن الإخواني الإرهابي " حسين مرسي أحمد"من مواليد الدقهلية هو منفذ الحادث وقد سبق واعتقلته الجهات الأمنية بتهمة الانضمام إلىجماعة غير مشروعة والمشاركة في اعتصامي رابعة والنهضة قبل أن يُفْرج عنه لاحقا لعدم كفاية الأدلة.

كما أكد البيان على أنه لا صحة لما تناقلته بعض وسائل الإعلام من أن منفذ العمل الإرهابي عمل " مرشدا " للجهات الأمنية، وطالبت وسائل الإعلام بتحري الدقة في أخبارها لا سيما في مثل هذه الظروف..

وأكد عزم وزارة الداخلية على الُمضي قدماً لأداء واجبها في حماية الوطن والتصدي للبؤر الإرهابية والإجرامية والخارجين عن القانون والشرعية التي أقرها الشعب في ثورة ٣٠ يونيو المجيدة بكل حزم وقوة وفقاً لأحكام القانون، في ظل محاولات جماعات الإرهاب الأسود النيل من الاستقرار الداخلي وزعزعة أمن البلاد..

وفى النهاية وجه رسالة إلى شعب مصر العظيم قال فيها: أن ما قدمته الشرطة والقوات المسلحة منذ ثورة ٣٠ يونيو من تضحيات وشهداء لترسيخ وإعلاء الإرادة الشعبية التي عبرت عنها جموع الشعب للحفاظ على استقرار الوطن ضد عبث العابثين وحرصاً على استمرار المسيرة الديمقراطية. لذا نطالب كل أبناء الشعب الاصطفاف بالملايين أمام لجان الاستفتاء للتأكيد على تلك الإرادة ونتعهد لكم ببذل كل الجهود لتوفير أقصى درجات الأمان في ذلك اليوم..

فامضوا أبناء وطننا قدماً نحو مستقبل أفضل إن شاء الله.

عاشت مصر.. والسلام عليكم ورحمة الله.

****

عقب العرض، وقبل أن يَهِمَّ بالخروج توقف اللواء محمد الفنجري للحظات وهو يقول: ما لم يُشر إليه الكاتب هو مصير سعادَ ومحمد، بعد الإعلان عن اسم منفذ الهجوم توجه نفر غير قليل من أهل القرية ورشقوا منزله بالحجارة والنار وكادوا يفتكون بسعادَ ومحمد، أنقذتهما الشرطة، وهما الآن تحت مسئولية الداخلية، وفرت لهما سكنا مناسبا وتكفلت برعايتهما.. أتمنى أن تكون بداية موفقة..

قالها ثم خرج ومن خلفه الجميع....

" تمت "

الغلاف

في مشهد مهيب يخلع القلوب كان " حسين " مسجى على خشبة طولية في غرفة ضيقة وقد أحاط به بعض الأخوة وقد شرعوا بإجراءات الغسل..طقوس وجهد كبير بذلته الجماعة لإضفاء الصبغة الدينية على العملية وتثبيت حسين ومن معه على أن عمليتهم هذه إنما هي لله ونصرة لدينه، ونصرة الدين ليست بالدعوة فقط وإنما بالدعوة والجهاد، " كتاب يهدي وسيف ينتصر"، ونحن الآن ننتصر بالسيف ليس لسارة وحدها وإنما لعشرات مثلها، ننتصر ونقتص ممن قتل الأطفال واغتصب النساء وهدم المساجد وقتل الساجدين وضيق على المسلمين وحارب الله ورسوله..